



كتاب سطور الناصح

لورانس ديونا



# صور حيلة من إيران

أوروي ————— ة في بلاد الملالى

١٩٨٥ - ١٩٩٨

ترجمة: محمد مستجير مصطفى



91



---

لورانس ديونا

---

# صور حية من إيران

أوربي ————— ة في بلاد الملالى

١٩٨٥ - ١٩٩٨

---

ترجمة: محمد مستجير مصطفى

---

## كتاب سطور

هيئة التحرير :

اعتدال عثمان

فاطمة نصر

- الكتاب : صور حية من إيران

- الكاتبة : لورانس ديونا

- المترجم : محمد مستجير مصطفى

- غلاف وإخراج : جوبى

- الجمع والتنفيذ : عصام عيسوى

الطبعة العربية الأولى ٢٠٠٠

رقم الإيداع ٢٣٩٦ / ٢٠٠٠

جميع حقوق التأليف محفوظة للمؤلفة

جميع صور الكتاب للمؤلفة

جميع حقوق الطبع والترجمة العربية محفوظة لـ سطور

٨ و ٢٣ تقسيم الشيشينى بجوار الكوبرى الدائرى

كورنيش المعادى ت : ٥٢٤٠٠٢٠ / ٥٢٦٣٥٩٩

e.mail address: sutour@mismnet.com.eg

## صدر فى هذه السلسلة:

١ - محمد «سيرة الرسول»

٢ - صدام الحضارات

٣ - عصر الجينات والإلكترونيات

٤ - القدس مدينة واحدة عقائد ثلاث

٥ - العولمة والعولمة المضادة

٦ - التاريخ السرى للموساد

٧ - حريم محمد على باشا

٨ - من يخاف استنساخ الإنسان؟

٩ - عولمة الفقر

١٠ - صور حية من إيران

تطلب كتب «سطور» من مكتبات الشروق، ومدبولى، والمكتبة الأكاديمية والأنجلو ودار المعارف

وفرع هيئة الكتاب ومؤسسة الأهرام والأكشاك



# شكر

تقدم الكاتبة

بشكرها

إلى سلطات

جمهورية إيران

الإسلامية لما وفرته

لها من تسهيلات ..

وإلى عالم الاجتماع والكاتب الإيراني إحسان ناراغى من

اليونسكو الذى علمها الكثير عن بلاده، وعن

اضطراباتهما ..

وإلى رسام الكاريكاتير مسعود شوجاى طباطبى الذى قدمها

إلى رجال القلم والفرشاة والصورة ..

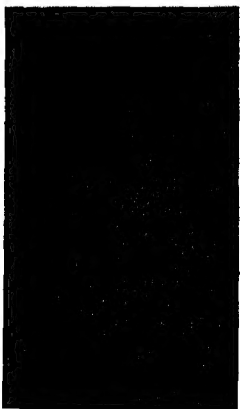
وإلى المترجم إيراجى كابولى لموهبته فى ترجمة الأشعار ..

وإلى زوجها فرج موسى ..

وإلى كل النساء والرجال الذين ساعدوها، والذين قد

يتعرفون على أنفسهم فى هذه الصفحات .





مقدمة

---

■

ما هي صورة إيران في الخارج؟ لماذا يقولون في كل مكان إننا إرهابيون؟ كيف نحافظ على ثقافتنا في وجه أميركا؟ أيمن أن تنتقدوا رئيس الدولة في بلدكم؟ حين يستحيل عليكم كتابة الحقيقة فماذا تفعلون؟

لقاء مرتجل في مدرسة الإعلام في طهران .. نصبوني فوق مقعد، خلف طاولة محاضر، ومفروض أن أتحدث إليهم: عن الصحف والصحافة، عن تجربتي الطويلة ككاتبة (ريبورتاج) .. عن كل ما أحب أن أتحدث عنه .. ثم بوجه خاص أن أجيب على أسئلتهم. واصطفت أمامي عدة فصول من دارسي الصحافة المبتدئين .. في الصفوف الأولى الأولاد في (بلوفرات) وقمصان .. ثم في المؤخرة الأشباح الداكنة للفتيات المنقبات.

نظرت إليهم وهم يجلسون في أدب عند قدمي فوق سجادة المسجد، فلدى مدرسة الإعلام، ككل مؤسسة من مؤسسات الدولة في إيران مكان استقبالها الخاص الذي تؤدي فيه الصلوات عدة مرات خلال النهار، فلماذا المسجد إذن؟

## مقدمة

لسبب وحيد هو أن مساحته واسعة، وأنهم كانوا من الكثرة بحيث لا تسعهم أى قاعة للدرس. شباب فى العشرينيات، يتعطشون لكل شىء، لأنهم ولدوا مع الثورة الإيرانية، ونموا معها فى عزلة، ونظرت إليهم وفى رأسى تدور فكرة: ولكن أى اختلاف! من كان يمكن أن يتصور مثل هذه المواجهة منذ بضعة شهور فحسب؟

كنا فى يناير ١٩٩٨، وكان محمد خاتى الرئيس الجديد الذى انتخب فى عام ١٩٩٧ قد مر من هنا، إن إيران تنفتح.

وهذا الكتاب هو جماع ذكرياتى.. لم تكن بهيجة دائماً هذه الذكريات فى عام ١٩٨٥، ولكن أيمكن أن تكون الثورة والحرب بهيجتين. وترجع أحدث الفصول إلى ديسمبر ١٩٩٧، ويناير ١٩٩٨، هذا الكتاب الذى جاء حصيلة كثير من الرحلات متباعدة الزمن إلى جمهورية إيران الإسلامية يمكن أن «يشير الاضطراب» فى العقول شديدة الديكارتية.. ولكن على أى حال أليس الاضطراب هو الحياة؟ فما أماننا هنا هو الحياة.. صور وانطباعات وتأملات وأسرار وأصوات.. كثير من

الأصوات التي تمتزج مع صوتي .

لم أستطع أن أمضي إلى كل مكان ، في إيران شاسعة الأبعاد ، كما لم يكن هذا هو غرضي ، فليس هذا الكتاب دليلاً سياحياً ولا هو تحليل سياسي ، فكل ما أردته هو أن أرى وأسمع . وأن أحاول أن أفهم ، بقدر ما يمكن أن تفهم ثورة ليست بالقطع ككل الثورات الأخرى ، أتراني لنجحت في ذلك ؟

والأمر المؤكد . على العكس ، هو أن كل الشهادات الواردة هنا ، سواء كانت رسمية أو ودية أو جاءت مصادفة ، أو حتى مخاطرة ! تعكس جميعاً ، كل بطريقتها ، شيئاً صغيراً ما من الستين مليون إيراني ورثة حضارة ترجع إلى ثلاثة آلاف سنة ، وهم وإن غلبهم اليوم عنف تاريخهم يظلون مع ذلك في مجموعهم . وفيما وراء التشنجات السياسية ، أناساً ودودين للغاية .

**لورانس ديونا**

جنيف - أبريل ١٩٩٨



## إلى الشمال

خريف عام ١٩٩٧ .. عند الفجر .. سماء زرقاء يشوبها لون رمادي وردى شاحب، وفي خلفية المشهد دائماً سفوح سلسلة جبال ألپورز، سفوح مازالت رمادية وعارية في نهاية شهر أكتوبر هذه، فبدايات الجليد لن تأتي إلا فيما بعد.

الطائرة من طهران إلى مشهد، باب دخول للرجال وآخر للنساء، فالمطار يطيع حرفياً تعليمات الحكومة، و«محل الدعوة الإسلامية» يفتح لك ذراعيه الروحانيتين، ويغص بمصاحف (كنج سايز) ومصاحف صغيرة الحجم، والملصقات الموحية، وأشرطة ترتعش بأصوات كبار رجال الدين العشرة، أما أنتن أيتها السيدات فحتى لا تنسين ثمة تحذير يحرص على أن ينبهكن، شأن كل الأماكن العامة وكل الإدارات وكل سيارات



الأجرة: الزى الإسلامى إلزامى.. ولكن.. هذه النظرة المتبادلة بين شاب وفتاة فى طابور الانتظار! واحدة من تلك النظرات المختلفة التى تقول: «... كان كل شىء رائعاً.. والأروع أن تعرف أننا سنكرره من جديد!»... نظرة كملايين غيرها تصادفها على الأرض، لكنها نادرة هنا حتى لقد اهتزت كل مشاعرى حين فاجأتها.

التفتيش.. وخلف ستارة أخذت امرأة فظة ملتصقة بمقعدها تتحسنى دون حماس.. ثم الحافلة، والسلم، والطائرة. «برجاء ربط الأحزمة!» والحق أن هناك ما يدعو إلى ربطها: طائرة سوفياتية قديمة أعيد تجديدها بشعار جمهورية إيران الإسلامية، وهى تذيع قبل الإقلاع مقطوعات لاريك ساتيه.

وقطعت رحلة هادئة، وعبر الممر ذاته انحنى كثير من الركاب ليقولوا فى استحياء لهذه الأجنبية «مرحباً بك فى إيران!»

## مشهد..

## قدس الأقداس

هبوط بطيء إلى «مشهد» التي تتداخل حين تنظر إليها من السماء مع الأرض المنبسطة في ألوان تتدرج من لون الصوف إلى لون الحرير، إنها بصفوف منازلها المتربة، ومساحات أسقفها المدرجة، مدينة على مستوى الأرض وفي لون الأرض. صحيح أن بضعة أبراج حديثة تنتصب هنا وهناك، لكنها مغطاة بالغبار حتى لا يكاد المرء يراها. وتمتد حول هذا السهل الجاف أبسطة خضراء واسعة من البساتين.. خضراء كالحياة.

وهبطنا.. ونحت، راقدة في ركن من الممر، طائرة مروحية عسكرية سوفيتية صغيرة لطخ هيكلها بالألوان لإخفائها، وقمت الإجراءات سريعاً، ثم جاءت المفاجأة: فباب الخروج من المطار يطل على النعيم، ففي حين تتوقع في المطارات الأخرى طرقاً واسعة كثيفة تحفها مناطق صناعية أكثر كثافة، فإن الطريق المؤدى إلى «مشهد» مليء بالزهور.. أدغال من الزهور.. فيض من الزهور، يصلك عبرها في نفحات، فينسيك رائحة القار الذي صهرته الحرارة.. فردوس حقيقي من صنع الله.

الله الذي تعيده إلى ذاكرتنا هذه اللوحة الحية «الله أكبر» المكتوبة بحروف هائلة فوق خضرة أحد التلال، حروف مكتوبة بالخصى الأبيض، يمكن رؤيتها من على بعد كيلبو مترات من كل الاتجاهات، ذلك أن «مشهد» عاصمة خراسان هي أهم مدينة مقدسة في إيران: تنقطع أنفاسك إذا أردت أن ترى مدينة أكثر منها تديناً، وأكثر وقاراً، وأكثر صرامة في نسكها، تنقطع أنفاسك ضجراً.

- أتعرفين أن «مشهد»، ثانية مدن البلاد، لا تضم سوى ست دور للسنيما لستم ملايين نسمة؟

وتعترف مهنار، دليلى، أنه ما من يوم يمر عليها في مشهد إلا واشتاقت لأنوار

## صورحية من إيران،

العاصمة على قلتها .

وهى مترجمة محترفة ، أعارها لى ناصر وايزتوباسى ، أحد أكبر رجال الأعمال فى المدينة ، وكان أبوه ، آية الله توباسى ، قد آلت إليه مع الثورة مهمة مهيبة : إدارة مؤسسة آستان قدس رجاوى فى خراسان ، وهى مؤسسة دينية بالغة الشراء ترجع إلى أكثر من ألف عام .

وتمضى مهناز لتقول - هاجرت مع أسرتى إلى «مشهد» أيام الحرب هروباً من الغارات العراقية ، ثم قرر والدى البقاء هنا ، وعلى أن أرتضى هذه الحياة ، هذه المدينة ، وأن أرتدى نقاباً زائداً .. لكم أكره هذا النقاب !

## لا الفن ولا الطريقة

فلنتحدث إذن عن النقاب ... حتى هذا اليوم كنت أتصرف بخفة فى طرق جمهورية إيران الإسلامية ، أكتفى بارتداء وشاح ، ومعطف يصل إلى القدمين ، وسروال يغطى الساقين ، وجوارب داكنة ، وحذاء مغلق ، أما عند التجول فى مشهد ، فى الحرم المقدس الذى يحيط بمقام رضا ، الإمام الشيعى الثامن ، فلا أستطيع التصرف على هذا النحو . فالشادور إلزامى .. إنه الحقيقة الحقة .. أمتار وأمتار من القماش الأسود .. ترتدى فوق كل الملابس الأخرى .

وأخرجت مهناز ، الخدومة دائماً ، واحداً من سلتها ، ولم أكن أمتلك الفن ولا الطريقة ، ( فالأستيك ) يفلت من رأسى ، والقماش ينزلق ، وكدت أسقط أرضاً وقدماى تضلان بين الطيات فى اللحظة التى كنت أدخل فيها مكتب الدكتور باروداران ، المدير الإدارى للمجمع الدينى الكبير :

- آسف يا سيدتى .. أرى أنك تجددين صعوبة مع هذا .. هذا .. ماذا تسمونه

## صورة حية من إيران

بالفرنسية ؟

— Le voile يا سيدى المدير .

إن رجلنا قد أنهى دراسته فى باريس ، وأى متعة أجدها وأنا أسخر منه اليوم  
بلغتى الأصلية .. إذا كان كل شىء بسيطاً ياسيدى فلماذا لا تحاول أنت أن ترتدى  
الشادور ؟ !

وارتفعت همهمة ارتياح فى الرواق ، ومهناز تعرب عن ابتهاجها .  
هل كنت أحلم ؟ أمازال يفكر فى ضفاف السين ؟ خيل لى أننى أرى خلف حية  
الدكتور باروداران وفى عينيه المجهدين نوعاً من المشاركة .

### مؤسسة غنية بالإيمان والأموال

والحديث مازال مستمراً .

وحسبما يقول فإن أنشطة أستان قدس رضوى لا تنتهى ، لأنها لا تكف عن  
التكيف مع كل الظروف وكل الفرص ، باللقوة ! وهذا أمر لا يحاول باروداران حتى  
أن يخفيه :

— الحكومة هى التى تحتاج إلى المؤسسة .. وليس العكس .

والمؤسسة اليوم فى كل مكان ، تصنع الأموال من كل شىء ، وهى تستخدم ستة  
عشر ألف شخص ، وتمتلك أراضي تكاد مساحتها تعادل مساحة سويسرا .. مزارع ،  
ومصانع لحفظ المأكولات ، ومعامل ، ومصانع وورش على أحدث طراز ، وتصدر  
المؤسسة فى جميع الاتجاهات وللعالم أجمع : الفواكه والزهور والخضروات ولحم  
البقر والدجاج والبسكويت والسكر والكعك والبونبون وعصير الفواكه والفواكه  
المحفوظة والسجاد والمنسوجات والقطن والأدوية والأمصال وجرانيت الزينة ، وغير  
ذلك الكثير .

ومن كل هذه الاستثمارات المزدهرة تولد المساجد والفنادق والمدارس  
والمستشفيات والعيادات والمقاصف والجامعات والمكتبات ودور النشر والطرق  
والجسور وقضبان السكك الحديدية ..

## صور حية من إيران،

- بل إن المؤسسة أعادت بناء مدينة بأسرها هي الجوازية التي سواها العراقيون بالأرض أثناء الحرب، وفي وقت لاحق أعادت تماماً بناء المدارس التي دمرتها الهزات الأرضية التي عصفت بمقاطعتنا خراسان.

### فاتيكان الشيعة

ولكن فلنعد إلى الخلف، فالحق أن هذا اللقاء مع المدير لم يكن سوى امتداد ليوم طويل، لم أكف فيه عن أن أملئ عيني - وكانت مهناز قد حصلت لي، أنا غير المسلمة، على تصريح بدخول الحرم المقدس - بكل الروائع التي أقيمت هنا تمجيداً للرب.

ولنكن أمناء، فكل من يتوقع أن يرى، في «مشهد»، حلماً في صحراء قاحلة، سيخيب المكان أمله لدى الوهلة الأولى، فشمة أراضى بور سديعية تحيط بالأماكن المقدسة، ممرات تفغر فاها، وطرق مجهزة، (والسقالات) تشوه المساجد، ويبدو أنها (سقالات) خالدة بدورها كالأزل نفسه، فبفضل سخاء المؤسسة لا يتوقف التجديد والتوسيع أبداً.

غير أن من حسن الحظ أن كل هذا الركام لا يحول دون لحظات الجمال، فالماذن الذهبية، حين تنظر إليها من بعيد، تعكس سياط أشعة الشمس الأخيرة، ويريقها يبهرك، ويخلب لبك.

ثم هناك الحياة التي تمضي، إنها تصخب في الشوارع المتاخمة للحرم المقدس، وتشدافع في الأسواق المغطاة، والناس يبيعون ويشترون على الدوام - لا أشياء جميلة وإنما في الواقع أشياء زهيدة للغاية، والرجل صاحب البنغاء الأزرق الذي يمارس تجارته على الطور نفسه، ينحني فوق قفصه الصغير الذي يودع فيه طائرته عندما ينتهي اليوم. والطقوس هي نفسها دائماً، فالطائر المدرب ينقر بمنقاره في سلة، ويلتقط منها بالصدفة قطعة ورق صغيرة، دنت عليها واحدة من تلك

الحكم العامة البالية الرثة.. ومع هذا يجد كل امرئ فيها نفسه، أو يتصور أنه يجدها.

وباعة الملصقات والصور المقدسة أقل انتشاراً هنا منهم في روما، والصور بدورها أقل تكلفاً، مرسومة بألوان صاخبة، في صخب تاريخ هؤلاء الشيعة الذين تنتصب عقيدتهم اليوم أمامي هائلة، باللونين الأزرق والذهبي.

فلنلق الضوء أمام القارئ، يمثل الشيعة عشرة في المائة من مسلمي العالم - فالجماعة الإسلامية تتألف في غالبيتها العظمى من السنة، وقد انفصل الشيعة عن السنيين لأسباب سياسية أكثر منها دينية، إذ رأوا أن خلافة محمد لم يكن ينبغي أن تؤول إلى الخلفاء الثلاثة الأول، أبي بكر وعمر وعثمان، وإنما إلى علي، ابن عمه وصهره، وبعد وفاة علي التف أنصاره حول ابنه الحسين، الذي قتله الأمويون في عام ٦٨٠ ميلادية في كربلاء، المزار الشيعي الكبير، الذي يقع اليوم في العراق. وتمثل ذكرى الحسين الشهيد، وفكرة أن السلطة الشرعية لا تنبثق إلا من إمام من نسل علي هو المرشد الروحي الأسمى، حجر الزاوية في العقيدة الشيعية، ويؤمن الشيعة إيران بالإمام الثاني عشر، «الإمام الغائب»، الأشبه بالمسيح الذي سيعود إلى الظهور ذات يوم قبل نهاية العالم، بل إن بعض السذج اعتقدوا أنهم رأوه مجسداً في الحميني...

و«مشهد» ليست كربلاء، ولا يمنع هذا أن ما لا يقل عن اثني عشر مليوناً يحجون إليها كل عام، قادمين من أفريجان (الاتحاد السوفيتي السابق) وباكستان والهند وأفغانستان والعراق والعربية السعودية وإمارات الخليج، بل حتى من الجانب الآخر من الأطلسي، من الولايات المتحدة وكندا، وبمساندة حارة من الأشقاء الإيرانيين رأى مسلمو يوغوسلافيا السابقة عقيدتهم تنبعث من جديد، ومن هنا كان وجود هذا العدد الكبير من أبناء البوسنة في «مشهد» في السنوات الأخيرة. ومن حق كل حاج الحصول على وجبة مجانية يومياً، تقدمها المؤسسة كلية الوجود.

رجاء ياسيداتى، قبل أن تدخلن الحرم المقدس، أن تتركن حقائب أيديكن وأجهزة التصوير فى «شباك الأخوات». ثم غرقت أنا ومهناز فى البحر، البحر

## صور حية من إيران

البشرى الذى يتدفق دون توقف فى أروقة المدخل .. غمرنا البحر وطوانا فى طياته ،  
بقعتان سوداوان تطوفان بين مئات الآلاف من البقع الأخرى . ولم تكن مهناز تمزج  
تماماً ، حين همست لى أن الأزواج لا يتعرفون على زوجاتهم فى هذا الحشد إلا  
بأحذيتهم .

قيل إن المرء يمكن أن يموت من المتعة ، ونستطيع هنا أن نقول إنه قد يموت من  
الجمال . غير أن فى هذا الجمال شيئاً ما ثقيل إذا قارنته بأصفهان مثلاً ، حيث  
النسب محكمة والأبعاد بشرية . فضريح رضا ، الإمام الشيعى الثامن ، ينتصب هنا  
فى (ديكور) عملاق ، بقباب هائلة ، وأقبية فى اتساع الاستادات الرياضية ،  
وصفوف البواكى والممرات لا تنتهى ، بنيت من عدة طوابق .. وهج من المرمر  
والموازيكو والكوى والشريرات والأرابيسك والجدائل والمعشقات والقوالب  
والترصيعات والدانتلا الخشبية والسقوف المجوفة أو المشطوفة بآلاف المرايا التى  
تلمع بالانعكاسات .

مقادير هائلة من الذهب ، لا يسع المرء إزاءها فى فاتيكان الشيعة هذا إلا أن  
يفكر ، كما يفعل فى روما يسوع ، فى ذلك النبى الذى كان فيما مضى يلقى ربه  
وحيداً وسط صحراء جرداء تماماً .

## القرآن والإلكترونيات

مكتبة آستان قدس رضاوى التى أقيمت منذ ستة قرون ، والتى ترتبط اليوم  
بشبكة الإنترنت ، مكتبة باهرة ، ٢٨٠٠٠ متر مربع من الروائع ، وبهاء الهوائيات  
يتزاوج مع أكثر الإلكترونيات تقدماً ، ويحف بضريح الإمام الثامن ، ولو أن الإمام  
الذى عاش فى أيام هارون الرشيد المجيدة قد عاد إلى الحياة لأصابته بالذهول .

ويحكى لنا المآثر راوية يتحدث بالإنجليزية .

- معدل التردد ٥٠٠٠ طالب يومياً ، وخدماتنا مجانية ، وتضم المكتبة حالياً

نصف مليون كتاب، تحت تصرف باحثينا، لكن لدينا مكاناً كافياً لاستقبال ما لا يقل عن خمسة ملايين كتاب. و ٣٥٠٠٠٠ من كتبنا ليست بالفارسية، وإنما موزعة بين خمس وخمسين لغة. وبعد مشاورات مع خبراء من الهند ومن فرنسا أقيمت إدارة مكلفة بالحفاظ على المخطوطات والمنمنمات القديمة. ويتحكم جهاز متقدم لقياس الرطوبة في رطوبة الجو، فهذه الأخشاب الثمينة وهذه المواد الرقيقة هشة للغاية، وقد نقلت بعض الأعمال القرآنية النادرة إلى (الميكروفيلم)، وعلى يد فنانيين، وكبار خطاطينا، يعيش تراثنا.

أما أنه يعيش، فهو يعيش، حتى وإن افتقر أحياناً إلى رقة ورشاقة الماضي.. شأن هذا المدرج الذي يضم نحو ألف مقعد وثير لكن ديكوره مفتعل باهظ التكلفة، وشأن مسجد المكتبة الذي تفتقر أخشابه المرصعة إلى اللمعة، لكن هذا لا يقلل من جلال المكان، فالمسجد بأسره يستند إلى عامود رئيسى منحوت على شكل عرش، يتسع عند السقف في انبساط دائري يحاكي أوراق النخيل.. تحفة تستحضر تلك الشجرة المقدسة التي كان النبي فيما مضى يعظ تحت أغصانها.

ورحابة هذه الممرات المرصوفة بالرخام مذهلة، وكذلك عدد الحاسبات الإلكترونية، وآيات القرآن تتنالى فوق اللوحات الإلكترونية كأسعار البورصة في الأماكن الأخرى.

ويمضى الدليل ليقول:

- ونحن مشتركون كذلك في ألف ومائتي صحيفة يومية ودورية، يمكن أن يطلع عليها الجميع.

وزيارة لقاعة الصحف، أو بالأحرى لقاءات الصحف، فما من شيء هاهنا بالمفرد، والرجال على أحد جانبي الممر، والنساء على الجانب الآخر، إنه عالم مزدوج، لا بد وأنه يكلف الكثير.

وماذا بعد؟ هكذا استقولون لي، ماذا عن ضريح الإمام الثامن؟

إن وضعي كامرأة غير مسلمة قد حال بيني وبين دخوله على ما يبدو. وتبقى الخدعة. فبفضل واحد من هذه (الاستوديوهات) التي يلتقط فيها الحجاج صورة



## صور حية من إيران

للكرى، التقطت لى صورة أمام نسخة من الضريح .. بالكرتون .

### أسير إلى

### حيث يقودنى فضولى

فلنستمتع بالشمس التى لم تكد تشرق، وبضوئها الرقيق، لنستمتع قليلاً  
بجمال الأشياء، ولنفتح الباب المؤدى إلى الشرفة على مصراعيه، ولننطل على  
الحدائق، وأسفاه! ما من نسيم رقيق أو شمس لطيفة تداعب بشرتى افشمة تحذير  
معلق خلف باب الغرفة يحظر على السيدات «الظهور فى شرفة الفندق بملابس  
النوم»، وبعبارة أوضح «لا تظهرن إلا بالزى الإسلامى، مرتديات الخمار».

بالأمس، عند وصولى إلى فندق (حوما) الفاخر فى مشهد رأيت عمالاً يقومون  
بتركيب صوبة كبيرة من البلاستيك المعتم حول أحد المروج - لزراعة نباتات نادرة؟  
إن شئت .. وإنما فى الواقع لإخفاء حوض السباحة، والسماح للنساء بالاستحمام  
فيه بدورهن .. تلك هى القاعدة فى إيران، فكل من الجنسين (ييلبط) فى ساعات  
وأيام مختلفة، بشرط إخفاء أحواض السباحة .. فهذا أمر بديهي .

الساعة السابعة، ومهناز الكريمة تضحى من أجلى بيوم عطلتها، وتنتظر فى  
صبر تحت سقيفة الفندق، سقيفة يعلوها عبارة «تسقط أمريكا» مكتوبة بحروف  
كبيرة، وإلى جوارها لافتة مضيئة موجهة لنا نحن «الزبائن الأعزاء»: «لما كان  
الحجاب الإسلامى هو الرمز الحى لموقف حضارتنا الإيرانية من المرأة، نرجو احترام  
ثقافتنا».

وأنا أحترمها .. أحترمها ..

وما كدنا نصل إلى الطريق حتى أخذت مهناز ترصد إحدى سيارات الأجرة .  
وفجأة غادرت عيناها حركة الطريق، ووجهت لى نظرة ثابتة:

- أتصيرين حقاً على الذهاب إلى هناك؟ إننى كما تعرفين لم أضع قدمى هناك أبداً، وحين تحدثت مع زوجى رجائى أن نأخذ حذرنا، فهذا الحى فى نظره، مورد للتهلكة، واللاجئون الأفغان الذين يزدحمون فيه قد يشيرون الشفقة، لكنهم لا يفكرون عن القتال فيما بينهم، عن مشاحناتهم القبلية الأبدية، وهم كذلك يسرقون كما قال لى، فانتبهى لحقيبتك!

لكنى يا مهنار، أمضى إلى حيث يقودنى فضولى، فأنا أريد أن أعرف.. أن أصغى لهؤلاء الأفغان الذين فروا من بلادهم وقد أنهكتهم تلك الحروب التى لا تنتهى أبداً، ثم إن من حسن حظى أنك تصحبينى يا مهنار، فأنت تستطيعين أن تترجمى أقوالهم، فأغلبهم يتحدثون الفارسية مثلك.

### إيران.. أكثر بلدان العالم كرمًا

منذ عام ١٩٧٩، حين بدأت الحرب ضد الغزاة السوفييت، واللاجئون الأفغان لم يكفوا أبداً عن التدفق إلى إيران، موجات فى إثر موجات. وكثيرون أعادوا صنع حياتهم، وآلاف الأطفال قد ولدوا، وعلى خلاف أولئك المتسككين الذين أعرفهم لدينا، والذين يقولون دائماً إن القارب قد غص بمن فيه، بدت إيران على الدوام أخوية بصورة غير عادية. واليوم، فى عام ١٩٩٨ لم يعد بوسع البلاد، واقتصادها يهتز بشدة أن تظل على هذا السخاء، وهذا الخندق الواسع والعميق الذى حفر على طول حدودها مع أفغانستان، والذى يرمى رسمياً إلى منع تهريب المخدرات - فالمخدرات مشكلة لعينة بالنسبة للشباب الإيراني كما هى بالنسبة لشبابنا - قد جاء (على الهوى) لكى يقطع الطريق بالمثل على المهاجرين الأفغان غير الشرعيين. وقد اعتبرت المفوضية العامة لشئون اللاجئين التابعة للأمم المتحدة، أن إيران حين استقبلت فى التسعينيات ما يصل إلى ٤,٥ مليون لاجئ، من الأفغان والعراقيين معاً، وهو رقم قياسى عالمى مطلق، فإن هذا البلد الذى لا يتغنى أحد بأفضاله كان «أكثر بلدان العالم كرمًا وسخاء».

وما ترين يا مهنار فإن ما أوده فى المقام الأول هو أن أتحدث إلى آخر من جاءوا، أولئك الذين طردهم الطالبان من البلاد.

فالتالبان، الذين غسل أمخاخهم الباكستانيون ودربوهم، وهؤلاء بدورهم

## صور حية من إيران:

يوجههم الأمريكيون عن بعد، يمارسون إسلاماً سنياً، جهلاء لكنهم مزودون بالأسلحة الحديثة (ولعلها هبة من الله) .. ويسيطرون على ثلثي أفغانستان. وبالمقارنة بهم لا يعدو آيات الله في إيران أن يكونوا أولاداً طيبين متزمطين قليلاً ولا أكثر. وتتردد عن الطالبان أقاصيص تتجاوز الخيال حتى لأود أن أسمعها بنفسى من أفواه هؤلاء المجانين.

واقتنعت مهناز بحجتي - أولعلها صمتت أدياً؟ - فقررت أن توقف إحدى سيارات الأجرة، فلنتوكل على الله ونركب إلى جولشارى، حى الأفغان، البعيد للغاية عن أطراف المدينة.

### جولشارى..

### ملجأ آلاف الأفغان

عبرنا طويلاً طرقات «مشهد»، الغارقة فى سبات الجمعة، يوم العطلة، ثم طرف سهل من أراضي سدنيية بلون ضارب إلى البنى، تزينه هنا وهناك ستارة خضراء من أشجار الحور، وأخيراً بدت جولشارى، التى تشبه أى مكان آخر، بيوت متفرقة هنا وهناك، وسوق ككل الأسواق، تلتمع فيه طماطم ككل طماطم، والجموع تقطع كآبة الشوارع الإيرانية، وتتجول فيه عمام وقبعات وصديريات وقمصان واسعة فوق سراويل فضفاضة، أى أجناس متنوعة لكل منها أنفه، الطويلة أو القصيرة، وعيون المستديرة أو المستطيلة، ولحيته، الكثة أو الصينية، التى تتألف من شعرات ثلاث متهدلة، وأعداد الشادور الأسود قليلة بين النساء، لكن هذه الألوان التى قد تسرع العين، ليست سوى شرك، فاللبؤس واضح جلى هنا، يسم الوجه المحبطة، الخالية من التعبير أحياناً، والتى يرسم فيها التحدى أحياناً أخرى - ماذا تصنع هنا هذه المرأة الطيبة؟ ولماذا توجه نحونا عدستها؟ وأى متاعب ستجربنا إليها بدورها؟ ألا تعرف أننا مقبولون بالكاد هنا؟

وخاطبت مهناز إحدى المارات، عجوز إيراني وشمّت ذقنها بنقاط زرقاء، أشارت

لنا بأن نتبعها ، وأخذت تلوح بيدها ونحن نسير :

- سأقودكما ، إن لدى جارة وصلت لتوها ، مسكينة ، لقد قتل الطالبان كل عائلتها ( وأشارت العجوز بيدها محاكية الذبح ) ، وهذا ما قالت له لى هي بنفسها .

ولكن أمام الخوف تتبخر حاسة الضيافة المقدسة في الشرق ، فقد رفضت الوافدة الجديدة أن تفتح لى الباب ، واسترقت النظر من فوق الحواجز المصنوعة من ألواح الخشب والكرتون التي تحيط بفناء من الطين ، ولم أر شيئاً ، سوى حملين أسيرين يتأوهان في سرير من النحاس مقلوب رأساً على عقب .

وازدادت كشافة الحشد الذي أثرنا فضوله حتى لنحتاج إلى كاسحة جليد كي تشق لنا طريقاً ، لكن هذا التدافع لم يمنع مهناز من متابعة بحثها ، سائلة هذا ثم ذاك ... عبثاً .. فالنظرات مخاتلة ، والردود مضغمة ، ومن الواضح أن اللاجئين الأفغان في جمهورية إيران الإسلامية يرفضون الحديث .

## الطالبان؟

### لا شيء يربطهم بالإسلام!

ثم مفاجأة ، أشار إلينا (ملا) شاب بيده ، ثم حاول أن يقودنا خفية إلى « حيث نستطيع أن نتحدث في هدوء » . وللأسف تابعت جموع من النظارة خطانا ، حتى البائع الصغير الذي يبيع أحجار اللازورد ، أحجار أفغانستان الثمينة ، ترك ركنه على الطور وتابع الحركة ، وإن لم يمنعه هذا من أن يطبق ذراعه بقوة على علبة الأحذية التي تمثل خزانته ومعرضه ... واقتفوا خطانا ، وراقبوا حركاتنا ، وما إن استطعنا ، الملا الشاب ومهناز وأنا ، أن نستقر في النهاية على مبعدة ، جالسين في جسارة على الطوار نفسه في حارة متاخمة ، بين بحر الماعز وآثار البصاق ، حتى كان جدار بشري يتضخم أمامنا ، مشكلاً على مستوى رءوسنا سداً لا يخترق من الصنادل البلاستيكية والأحذية الرثة الشبيهة بحذاء شارلى شابلن .

## صور حية من إيران:

وبحث رجلنا عن وضع مريح، وركن ظهره إلى الحائط وقد طوى ساقيه ثم اندفع يتحدث وهو يعدل عمامته البيضاء:

- لا أستطيع أن أذكر لكم اسمي. من أين جئت؟ من مقاطعة أوروغان بجنوب أفغانستان. كم يبلغ عمري؟ ثلاثون عاماً. وبالطبع لا تصوير، أليس كذلك؟

ومن المؤسف أن صديقنا الملا الشاب كان رائعاً بلحيته المشوبة بحمرة خفيفة تكاد تكون شقراء، وعينييه الخضراوين المدهشتين، ونعومة صوته، ورقة ابتسامته، المضيئة والمنكسرة في آن واحد.

وإذن؟ ماذا يحدث هناك؟

- هناك؟ أمر بشع.. الحرب. ثم الحرب، قولى لهم، قولى للعالم إن ما يفعله الطالبان ليس له صلة بالإسلام. وآخر حماقاتهم، لقد حظر هؤلاء الأجانب الاحتفاظ بطيور الكناري في أقفاص، ربما لأن تغريدها يذكرك بـ... بـ...

... بالحب، وماذا عن المرأة في هذا كله؟

- إنها تعامل أسوأ من الحيوان، فما من مدارس للبنات، أو عمل للنساء، وإنما يتخفين جميعاً كلية تحت الشادور، ولا تستطيع المرأة أن تخرج من بيتها دون أن يصحبها ذكر من الأسرة، حتى لو كان صبياً صغيراً، فإذا عرفت أن العمل يمثل بالنسبة للآلاف من أرامل الحرب مصدر العيش الوحيد لهن ولأطفالهن والمواسير محطمة، ولم يعد هناك ماء جار. وتبقى الحمامات حيث مازال بوسع المرأة أن تغتسل بالماء الساخن، ولكن حتى هذه الحمامات العمومية التقليدية القديمة، بقيت محظورة عليهن. وتصاب الكثيرات بالأمراض لنقص الرعاية، ونقص الوقاية الصحية، لكنهن، حتى لو كن نصف أموات، لا يسمح لهن بدخول المستشفيات! فالطالبان يزعمون أن الدين يحظر أن يتقاسم الرجال والنساء نفس المستشفى حتى لو كانوا منفصلين...

وبقيت عبارة الملا الشاب الجالس أمامنا معلقة في الهواء، لكن نظرة ألقيتها من فوق كتفى كانت كافية لتوضيح الأمر، فقد كان كل شيء يهتز حولنا، والفضوليون يتحركون وقد استولت عليهم فجأة حمى غريبة، ثم سار كل شيء بسرعة شديدة، وساد الصمت بين الحشد الذي أخذ يتباعد بحذر، فاتحاً الطريق

أمام رجلين فى الزى الرسمى، طلبا منا بأدب أن نتبعهما .

## مقبوضاً

## علينا

أخذتنا عربة عادية غير بعيد، إلى مركز للشرطة يحيطه جدار مرتفع، يخترقه باب صغير عبرناه تحت حراسة دقيقة .. فناء واسع، غبار وحراس يتسكعون هنا وهناك، ومدافعهم الرشاشة فوق أكتافهم، وعند عتبة المبنى يلوح فى نهاية الممر سلم أسمنتى لا يبشر بخير فى نهاية الممر . وتحت الدرجات الأولى كوة تحيطها القضبان، وبوابتها يغلقها قفل كبير .

ماذا عن التحقيق إذن ؟ «عند القوميسير الذى سيستقبلكم بين لحظة وأخرى» . والباب المفتوح على مصراعيه يكشف عن مكتب متوسط الحجم، تغلقه نوافذ ذات قضبان تغطيها شبكة رقيقة - لمكافحة البعوض - ومائدة تشغل الجانب الأكبر من المساحة، فوقها طبقات من البلاستيك الرث .. رن .. رن، جرس الهاتف يدق، بل أنه لا يكف عن الدق، والحمد لله أنه يعمل .

وبهيئة هادئة قدر الإمكان جلست أنا ومهناز ننظر دورنا فى فرجة الباب .. ورجال شرطة يروحون ويجيئون، يدخلون ويخرجون، وكلهم يرتدى نفس القميص الأخضر الفاتح، وبالطبع اللحية الجرداء وقد يبدو وصفى للذكور ترتيباً للقارئ، يتكرر طيلة هذا الكتاب، ولكن أهو خطئى إذا كان ترك الشعر على سجيته يمثل جزءاً من العرف القومى منذ الثورة الإسلامية ؟

وأخيراً .. حركة ما .

- اجلسا ..

ويسرعة تنزلق الحقيبة التى تحوى أجهزة التصوير تحت مقعدنا، حقيبة نسائية للغاية، خفيفة تماماً، بريئة المظهر، بقماشها القطنى الوبرى المطرز بأشكال

الزهور. من حسن الحظ أننى لم أجد بنفسى أبداً القدرة على أن أحمل حقيبة الكاميرا التقليدية - التى تمثل جزءاً من عدة المصور!

## ساعة؟

## أسبوع؟ شهر؟

ليس بغيضاً هذا القوميسير، عملاق ذو بشرة نحاسية، وعينين ذهبيتين، يحتسى كوب الشاي، وأصبعه الصغير مرفوع كأنه ماركيز، أبوسعى أن أحسسى بدورى قطرة؟ أمر من الرئيس، والمرءوس يطيعه برقة، مبتعداً ليقوم بتسخين الماء فى غلاية ضخمة من المعدن الأصفر، ويعود مقدماً لى بعض السكر، وفى وسطه ترن عدة أزواج من (الكلابشات).

-أوراقكما!

ومد القوميسير يده نحونا.. وانزلق جواز سفرى وبطاقة هوية مهناز نحوه عبر المائدة.

صمت... إنه يقرأ، وحدقنا بأنفاس مقطوعة فى يديه وهما تفلبان الصفحات واحدة بعد الأخرى. وانتهى الفحص، ووضع المفتاحان السحريان عند طرف المائدة الآخر، بعيداً عن متناول أيدينا.. إلى متى؟ ساعة؟ أسبوع؟ شهر؟ شهر؟ شهر؟ وترجمت مهناز قدر ما تستطيع دفاعى، الدفاع البائس لطائر مذعور.

- انظر ياسيدى القوميسير، لقد رأيت جوازى! ثلاث تأشيرات من القنصلية الإيرانية فى جنيف عام ١٩٩٧! ثلاث تأشيرات فى هذا العام وحده؟ أليس هذا دليلاً على ثقة سلطاتكم فى؟

- هذا كله حسن يا سيدتى، ولكن أين بطاقتك الصحفية الإيرانية؟ أين بطاقتك الصادرة عن وزارة الإرشاد الإسلامى؟

ولم تكن لدى هذه البطاقة فلما لم تكن القنصلية قد تلقت حتى ساعة مغادرتي موافقة طهران على منحى تأشيرة صحفية، فقد انتهت بأن ختمت جوازي بتأشيرة سياحية بسيطة.. كان هذا مجاملة من جانبها، وهامو يستدير الآن ضدى، بل إن كل شىء يستدير ضدى اليوم.. ألسنا يوم الجمعة.. الأحد الإسلامى؟ والمكاتب مغلقة، وكذلك سفارتي التي تقع بعيداً عن هنا.. فى العاصمة.

وبدأ الانتظار.. والتليفون يرن، ويرن من جديد، والصيحات ترتفع، والحديث.. عمن يتحدثون؟ عنا بالطبع، وحاولت مهناز أن تعطى معنى لهذه النصف المتناثرة. وكلما زاد اللغز زاد القلق، طيلة حياتها لم تحتك أبداً بالأمن.. لكنها تعرف الأمن.. ومن الذى لا يعرفه، في إيران بلد لا يشعر جلدك فيه بسبب البرد فقط.

## انظر إليهم

### يعبرون حياتي للحظة

والانتظار يطول.. فبنا أو بدوننا يواصل مركز الشرطة حياته، وكثير من العائلات الأفغانية التي يصحبها أربابها، وتنبعث منها نفس رائحة الإنهاك الغامضة تمر أمام مقعدينا دون أن ترانا، ونظرت إليهم.. أولئك الذين يعبرون لحظة بحياتي كما أعبر بحياتهم، كنت أشعر بقلقهم، فهم الذين وصلوا لتوهم ينبغي أن يقننوا وضعهم، وأن يسجلوا أسماءهم فى سجل اللاجئين الضخم، قوائم لا تنتهى أبداً. «الاسم؟»، «تاريخ الميلاد؟». وهنا كان على رجل الشرطة أن يقدر بنفسه لأن الرجل لا يعرف سنه: «حسناً.. لنقل.. ثلاثين عاماً.. موافق؟» ويهز الأفغانى رأسه، ولأنه أمى فى أغلب الأحوال يضع توقيعا غامضاً فى أسفل الصفحة.

هل كل اللاجئين الأفغان من الشيعة؟

أعرف.. أعرف أنى حتى فى هذه الأماكن الخطرة لا أستطيع أن أمسك لسانى.



وترجمت مهناز دون حماس، ومط القوميسير الجالس عند طرف المائدة شفثيه امتعاضاً.. ماذا تريد منى إذن هذه الصحفية؟ غير أنه تنازل وأجابني بطرف لسانه أن نعم.. إن الغالبية العظمى من الأفغان الذين يأتون إلى جولدشارى هم من الشيعة حقاً، أما عن عدد اللاجئين فهو لا يعرفه.

ويستطرد قائلاً فى استياء «ودعيني أقول لك أنك حين تحدثت منذ قليل لا مع إيرانيين وإنما مع أجنب فقد خرقت القواعد مرة أخرى».

ونستطيع أن نفهم على أى حال أن سلطات طهران تضع اللاجئين الأفغان تحت رقابة صارمة، فمن يعرف ما إذا كان بعض أنصار طالبان أو غيرهم من المخربين لم يستغلوا الفرصة ليندسوا وسط هذه الحشود الخارجة؟ وخاصة وأن الفوارق ضئيلة حيث يتحدث الجميع اللغة نفسها، ويمارسون العقيدة نفسها، وأن هذه العقيدة تتخطى الرايات القومية، وأنه وفقاً للتقاليد فإن طلبة الفقه يخرجون من مدرسة دينية إلى أخرى، متنقلين من بلد إلى آخر.

## هل أستطيع

### أن أتصل تليفونياً؟

وفى ضيق سحبت مهناز مقعدها إلى جوار مقعدى، وهمست لى أن أصمت :

- كفى ! اتركى قلمك، وضعى مفكرتك فى حقيبتك !

والحق أنه لم يكن حولنا سوى الذباب، وأن التوتر كان يزداد، والمكالمات التليفونية الغامضة تتقاطع، أفلم يبق لدينا حقاً ما نفعله سوى أن نبقى هنا.. جالستين على مقعدينا حتى.. حتى متى؟ حتى ننتهى منسيتان فى قلب... زلزلة؟ إن مهناز التى ظلت بشجاعة حتى الآن ترفع روحى المعنوية، ساخرة من مغامرتنا..

مجرد حادثة عابرة كما تقول... مهناز هذه لم تعد تبتسم.

- هل أستطيع أن أتصل تليفونيا؟ ألقتهما كما يلقيون زجاجة في البحر. نعم  
تستطيع.. ليس القوميسير بهذا السوء! وبحمد الله أياً كان اسمه كانت مهناز  
تحتفظ بكارنيه عناوينها في حقيبتها، وبحث، بحثت بعصبية عن رقم التليفون  
الخاص لناصر وايز تياسى:

- على أى حال فإن رئيسى من أقوى الشخصيات فى مشهد، ولا بد أن يستطيع  
إخراجنا من هنا!

ترن.. ترن.. ترن. من سوء الحظ أن رجلنا ليس موجوداً، إنه يصلى فى المسجد  
ككل أيام الجمعة، لكن زوجته وعدت بأنها ستحاول الاتصال به على رقم تليفونه  
المحمول.

. وبعد ربع ساعة اتصل أحد مساعديه بمركز الشرطة.

أياً كنت يا من تدخلت لصالحى.. إنى لا أعرفك وربما لن ألقاك أبداً.. إنى أدين  
لك، على خلاف من كانوا أسوأ حظاً منى، بخروجى فى ذلك اليوم، مفلتة بالكاد  
من براثن الأمن، فمملكة الأمن مملكة خطرة، تديرها (هيرانشيات) غامضة  
متغترسة، غارقة فى اللامعقول، فماذا كان بوسعى أن أفعل.. أنا المعزولة.. التى  
حتى لا تتحدث الفارسية؟

### فى مقر الأمن العام

لكننا لم نصل بعد إلى ذلك.

أبواب سيارة تصفق أمام القوميسارية، ويبرز منها رجال يرتدون الزى المدنى،  
ويعبرون الفناء بخطوات واسعة، إنهم يريدوننا، يبحثون عنا.. لا لإطلاق سراحنا  
للأسف. واستولى أحد مرافقينا الجدد على أوراقنا الموضوععة على المائدة، ودعانا  
إلى جمع أشياءنا بسرعة ومتابعته.. وداعاً يا جوشارى، بمركز شرطتك البسيط،  
وجلبتلك وغلايتك وأكواب شايك، بجانبك الطيب: «حيثما تتجهان الآن  
ياسيداتى فإن الأمر مختلف، إنه أكثر جدية».

منذ بضع ساعات فحسب قطعت أنا ومهناز الطريق نفسه فى الاتجاه المعاكس،  
فى لا مبالاة.. ثم انقلب كل شىء أمامنا، وغدا كل شىء أسود، كسيارة الشرطة

## صور حية من إيران:

السوداء التي تقلنا إلى «حيث الأمر أكثر جدية». وكل شيء يسير بسرعة، المنازل، والحقول، والمشاهد. أى مشاهد؟ إنى لا أرى سوى مشهد واحد: مشهدى أنا، الداخلى، وكنت خائفة.

هدوء يوم الجمعة فى «مشهد».. والشوارع خالية فى قلب المدينة، والمارة نادرون، وأنا ومهناز «نتبع الدليل».. خطوتان أو ثلاث على الطوار، ثم ها هي بوابة المقر العام للأمن يحرسها جندى شاب، صبى عصبى، يوجه لصدورنا فوهة مدفعه وأصبعه على الزناد.

فناء أول.. وأنا أقول أول لكثرة الأفنية والأفنية الخلفية فى هذا التيه من الجدران والأبواب الموصدة، وعدد من الحراس المتعطلين المدججين بالسلاح يصطفون فى استرخاء على دكة خشبية، ويسلون أنفسهم بالنظر إلينا ونحن نمر.. من هاتان المرأتان؟ انظر إلى أصغرهما حجماً، تلك التى ترتدى الخمار معكوساً، من المؤكد أنها ليست من بلدنا! والمرأة المذكورة كان قلبها قد سقط فى قدميها، لكم هو غائم هذا الإحساس بأنك تعيش شيئاً غير واقعى وهم يقودونك أماماً نحو باب من الحديد فى الطرف الآخر من الفناء، هذا الباب الذى سيفلق خلفنا بعد بضعة ثوان... بنج! كلاك! الباب.. ثم القفل.

ثم فناء آخر، فى نهايته مبنى صغير تحيطه جدران عالية. ودخله أحد حراسنا بخطى سريعة، أما نحن فصدرت لنا الأوامر بالانتظار فى الخارج، حيث أجبرتنا لسعة شمس الظهيرة على الاحتماء بظل الحائط الضيق.

## مكان يزرع تحت الصمت

### الانتظار.. الانتظار دوماً.

أخيراً وصل رجل الأمن الذى تسلمنا من رجال الشرطة، ورأيت يديه تقبضان على أوراق هويتنا.. ماذا بوسعنا أن نفعل إلا أن نقتفى خطى هذا الرجل النحيل

ذى القميص غير النظيف، والسروال والجاكيت المجمعين كوجهه الذى تغزوه لحية شعشاء. ومضيئاً معاً بطول الممرات الطويلة. لأن اليوم هو يوم الجمعة؟ لا صوت سوى وقع خطانا، إن المقر العام للأمن مكان مغلق يرنح تحت الصمت، ولا يتردد فيه ننين تليفونات ولا صوت آلة كتابة، ولا أدنى صوت بشرى.

وهناك.. على اليمين فى نهاية الممر.. يوجد باب.. الباب الخلفى الذى أودعنا وراءه، حيث كل شيء يبدو كالسينما: غرفة خالية تماماً ذات جدران قدرة، وناقذة بقضبان، ومصباح مغلف بأوراق صحف قديمة فى السقف يلقي ضوءه على مائدة خالية، يحيطها من جانب مقعد للمحقق، ومن الجانب الآخر مقعدان رثان أو ثلاثة للمحقق معهم.. للمتهمين.. لنا نحن اليوم، وعلى مدى الذراع، وإن لم يكن فى متناول اليد، يرقد أمامى جواز سفرى السويسرى، يمشل لونه الأحمر بقعة فى عبرة المائدة الرمادية.

أثمة صوت مريب؟ ثلاث مرات يندفع محققنا كزنبورك نحو النافذة ويلصق عينيه بصدع صغير من الورق. ثم يعود هذا النحيف المتوتر دوماً إلى الجلوس، ويتناول قلمه بعصبية، ويستمر فى أخذ أقوالنا. كلاك! صوت الباب عند نهاية كل دورة، ويغادر رجلنا الغرفة مسرعاً نحو الطرف الآخر من الممر.. حيث يوجد رؤساؤه.. حيث يتآمرون؟ أيستريون - دون أن يقولوا أبداً - فى أن أكون جاسوسة عميلة.. ولكن عميلة من بحق السماء؟

ولما كان الأمن لا يفرض بالخيرات فإن أحداً لم يقدم لنا كوباً من الشاي، ولا حتى كوباً من الماء قد يهدئ قلقنا، الذى كان يتزايد مع مرور الساعات، ها نحن وحدنا، ومهناز صامتة، هاربة فى شادورها وعرقها، نفس هذا العرق الحامض الذى يغمر كثيراً من النساء هنا المجبرات على أن يتصببن عرقاً تحت طيات ملابسهن، أما أنا فأخذت تمر أمام بصرى زيارتى منذ أكثر من عشر سنوات لسجن إيفين السياسى فى طهران: كنت حينئذ فى الجانب الآخر من السور، ومن يدرى ما إذا كانت إحدى هذه الزنازين تنتظرنى اليوم؟

وفجأة بدأ المشهد فى التحرك مع ظهور ممثلين جدد، وظهر موظفون آخرون للرعب آمرينا بأن نتبعهم، الاتجاه... مكتب رئيسهم؛ رجل أقرب إلى البدانة وجدت فيه، وبالعراة، هيئة تكاد تكون طيبة.

- هذا هو التقرير الخاضع بكما يا سيدتاي، وقعا.

وبدأت مهناز، التي أدارت رأسها هذه العجلة تقرأ.. ببطء شديد، وحذر شديد، خشية أن تقع في فخ نص قد يعتبر اعترافاً.. ولكن اعترافاً بماذا؟ ومضت إلى حد اقتراح بعض التعديل في العبارات، ونجحت في ذلك.

وإذن؟ هل نجونا؟ بدا لي الأمر كذلك.

متى نرى الشمس من جديد؟ حالاً طبعاً.. وها قد انتهى الخوف الرهيب، وأعادوا لنا أوراقنا، وصحبنا الرئيس بنفسه حتى الفناء، بل أخذ يتمتم بعبارة آسف، كليك.. وفتح رتاج الباب الحديدي.

تمت مهناز وهي تتقدم نحو باب الخروج - من حسن الحظ أننا لم نضرب. والمعجزة: أنه طيلة هذه المغامرة، لم يفتش أحد حقائبنا، وظلت الكاميرا والأفلام بمنجاة.

## الفردوسي

### الخالد

تمتد ضاحية «مشهد» الشمالية نصف حضرية ونصف ريفية، وبعد انحناء إلى اليمين تمتد الطريق عبر الحقول حتى توس.

واليوم لم يعد اسم توس المجيد - الذي كان يشمل منذ قرون مجرة من المدن، تحول جزء منها تماماً إلى غبار - سوى اسم قرية كبيرة يحفها جدار عتيق، يتهالك وينهار، قرية بسيطة.. نعم، لكنها ليست أي قرية.. لأنها تضم ضريحاً ومتحفاً ونوافير مياه وبساتين.. تكريماً للفردوسي، الشاعر الملحمي الفارسي الكبير في القرن العاشر، وأحد أبناء توس.

والشاعر يرقد اليوم تحت الرخام، غير أنه كثيراً ما رقد فوق الخرق، فلأنه لم  
يمسك بلسانه ولا بقلمه فإن الشاعر الكبير قد أنهى حياته شريداً، بائساً وحيداً،  
وبعد سنوات طويلة من طرده شعر الملك أخيراً بالندم على فعلته، وأرسل إلى  
شاعره الكبير قافلة محملة بالهدايا، وللأسف ففي اللحظة التي كانت فيها هذه  
المنحة المتأخرة تدخل من أحد أبواب المدينة كان جسد الفردوسي يغادرها من باب  
آخر... إلى المقبرة.

هل كنت أيها الشاعر الكبير، في سنواتك الحزينة الأخيرة شبيهاً بلاعب  
(التار) المجمع كأنه ثمرة دين قديمة، أو بهذا الموسيقى الذي يعث اليوم أمام المتحف  
المكرس لك بأوتار آلة قديمة؟ أترأه يغنى أشعارك؟

وكيف يمكن لك أن تفلت من أشعار الفردوسي، إن مكبرات صوت معلقة  
بالأشجار تبثها في كل الرياح وفي كل مكان، ينشدها صوت عميق... ووحدته بائع  
البطاقات البريدية هو الذي لم يعد يلقي إليها بالاً، وانقطع عن ثقافته موصلاً جهاز  
الفيديو بأحد أعمدة النور.

إنه يطلق الرصاصا، إنه يقتل، إنه يسحق، إنه يطلق بندق الليزر فوق الشاشة  
الصغيرة... لكم هي جميلة أمريكا!

---

## هناك مقدس..

---

## ومقدس

---

- لحظة يا سيدتي، ناوليني إياها!

وبإشارة حادة استعاد مدير المتحف من يدي الورقة المكتوبة بالإنجليزية ركيكة.  
والموجهة إلى زوار المتحف الأجانب (غير الموجودين)، ثم أسرع يشطب موقع  
الجريمة بسائل التصحيح الأبيض. كانت العبارة المقصودة تقول إن الفردوسي، في

آلاف الأبيات التي يضمها «كتاب الملوك» قد صور في براعة فارس في زمانه،  
بملوكها وملاحمهم، بأمجادهم وأوجه ضعفهم، بدمائهم وزهوهم، دون أن يغفل  
الروح.. الأدب.. الثقافة التي تغمرهم، حتى لقد أسماه العلماء العرب في ذلك  
الحين «كتاب الفرس المقدس».

كتاب الفرس المقدس! أى جريمة تجديف في نظر آيات الله اليوم، الذين لا يرون  
مقدساً سوى القرآن.

## تشبثي

## بالسلم!

لكن اللحظة الراهنة هي التي تملكتنى بكل ما يرتعش فيها من حياة.. ترتعش  
في دقائق الطبل التي تصلني من الطرف الآخر من القرية، من واحد من أزقة الشرق  
الأوسط الأبدية حيث تتواجد البيوت الطينية الخالدة، منخفضة ودون نوافذ،  
بأسرارها الخلفية التي تنغلق عليها أفنيئتها، ولكن أيها؟ أى زقاق؟

ليس بوسعي إلا أن أتبع أذني، وظلي يمتد أمامي في ضياء ما بعد الظهيرة..  
موعد احتفالات الزفاف.

ذلك أننا أمام احتفال زائف.

ومكبر صوت معلق في ركن أحد الأسقف، وموصول بجهاز تسجيل، يردد  
أنغام الرقصات وغناء الرجال. والنسوة الملتفات حتى عيونهن بالشادور الفاتح أو  
الأزرق أو (البيج)، النقاب الداخلى أو الشعبى، ينظرن فى صمت إلى المشهد من  
بعيد، منذ أمد بعيد وهن ينظرن من بعيد، لا يملكن شيئاً فى مصيرهن.

والخروج على القواعد قد يكلفك حياتك، وليس دائماً بالطريقة التي  
تتصورها. وهكذا استرقت الخطى من الزقاق عبر الباب (موارب) يفضى إلى فناء،

استكشف الوسيلة التي يمكن أن تقودني إلى رؤية جيدة للمشاهد : سلم ، سلم مسنود إلى الجدار ويصعد حتى السقف وهو - بالمناسبة - نفس السقف الذي يشغله الرجل المستول عن البرنامج الموسيقي النسائي .

وفي الفناء تكاكي دجاجات ونساء مسنات ، إنهن يتصرفن كأمهات حقيقيات لى هؤلاء العجائز ! كتلك التي جذبتني من طرف معطفي ، ووقفت وحاولت أن تمسك بخصلة شعري المتمردة دوماً ، لكي تعيدها إلى المكان الذي ينبغي أن تبقى فيهك كأمينة تحت الوشاح .

ويبقى هؤلاء العجائز في الفناء ، يدفنن عظامهن الهرمة ، وقد استندن بظهورهن إلى الجدار ، وعلى أي حال فلا بد أنهن قد رأين من الزيجات الكثير والكثير .

أما أنا فلا . . على الأقل في إيران ، ومن هنا كانت رغبتي في أن أصعد السلم . . سلم ضيق من الخشب ، ملتو ومهتز ومتأرجح . . غير أنني اندفعت مع ذلك ، ومعطفي الطويل يعرقل صعودي ، وآلة التصوير تثقل كتفي ، وعند مستوى السقف وقعت الكارثة ، فقد اهتزت ، واهتز السلم معني . ودار برأسي أنها النهاية ، وأني سأنتهي حياتي في مقعد متحرك . النجدة ! وانشيت بكل جسدي إلى الأمام ، ومددت يدي بحركة يائسة نحو الرجل الواقف أمامي فوق السقف . . لكنه لم يأخذها ، وظل يحملني فيّ دون أدنى حركة : إن دينه يمنعه من أن يلمس يد امرأة . . هوب ، وألقيت له برباط آلة التصوير ! فالتقطها . . . ونجوت !

---

 في
 

---

 الحمام
 

---

وبعد فترة صحت النسوة حتى الحمامات المحجوزة لهن ، حيث ستغتسل لخدمة الليلة وتعطر وتحمّل ، باب صغير شبيه بالأبواب الكثيرة التي تطل على الزقاق ، وما من شيء يميز «الحمام» أمام المارة ، وبعد بضعة أمتار ينثنى ممر الدخول الضيق



تسعين درجة، ساداً بإحكام رؤية العتبة المؤدية إلى الداخل.

حمام قروى بسيط بجدران رمادية عارية، وأرضية من الأسمنت، لكم نبعد عن الحمامات الفاخرة ذات القباب المصنوعة من الرخام والموازيكو، جو خائق.. كنت أختنق وأنا أرتدى كل ملابسى، ولكن ماذا أفعل إلا أن أبقي فى مكان المدعوات، اللاتى لم تتخل واحدة منهن عن نقابها؟ وفى المساحة الضيقة الخائفة، كان الجنون. إنهن يرقصن ويغنين، يجسرن على الرقص والغناء، ويضحكن - يجسرن على الضحك كالمجنونات، وامرأة جالسة على الأرض تضبط الإيقاع، ضخمة كطبلها.

ثم ثلاث درجات قبل أن تصل إلى المغطس ذاته، الذى يبرز منه وسط ضباب البخار جسد العروس العارى ببشرته الرقيقة التى لم تكد تتجاوز الثالثة عشرة من عمرها.

## بعض الذكريات

### العابرة من الكوكب

#### المجاور

فنلعد إلى «مشهد»، أمامنا الشمس الغاربة، وخلف ظهورنا تتباعد الجبال التى تفصل إيران عن جمهورية تركمانستان السوفيتية السابقة.

ذكريات وذكريات... منذ عام ١٩٩٦.. وتركمانستان القريبة للغاية من إيران، والبعيدة للغاية عنها... كأنها كوكب آخر... بالشوارع السوفيتية الفسيحة لعاصمتها عشق آباد، وهؤلاء الجنود بقبعاتهم التى مازالت تعولها شارة المنجل والمطرقة، يتولون حراسة مطار يكاد يكون مهجوراً كصحراء

كارا كورم المتوهجة التي تمتد حوله .

لقد اصبطغوا بالليينية عقوداً، وتحضروا، على مضض منهم أحياناً، واستبدلوا بخيامهم المستديرة منازل ذات نمط موحد، وبقي التركمان مع هذا يداعبهم الحنين إلى مواكب الفرسان اللانهائية التي من أجلها سمووا برجال الريح، ومن هنا مصنع الخيول هذا كما قدموه لى، حيث تتراقص اليوم سلالة الخيول الأسطورية للفردوس التركمانى . كيف يمكن أن أنسى الجواد الذى فاز بكل سباقات العام؟ بجلده الأسود اللامع ومنخاره المرتعشة، شىء ما وحشى، وعلى قضبان صندوقه علقت وريقات صغيرة: قصائد، أبيات وضعها عشاقه، له وحده؛ الجواد الإله .

وليس فى تركمانستان حجاب، ولا معطف، وشعرى يهفهف فى ريح الصحراء، وجسدى لا يقيده شىء، وفى قوس قزح من الألوان الحية تسير النساء بملابسهن الزاهية، وقد عقدن الأوشحة عقدة فنية حول أعناقهن، وشعورهن السوداء تتراقص حتى خصورهن .

وأخذ فلاح ترجمانى ذو عينين مشقوقيتين، أتا مراد، يتمتم مشيراً بذقنه إلى ما وراء الجبال التى ازرقّت بالحرارة نحو معقل آيات الله :

- أنا مسلم .. نعم .. أما فى الجانب الآخر فإنهم مجانين .

وألقى نظرة تفيض حباً على ابنته وقال :

- طالما ظلمت حياً فإنها لن ترتدى أبداً هذا الشادور اللعين !

انفعالة أبوية، أعقبتها ابتسامة واسعة من الفتاة: باسم ماذا، أنا المتألقة، أدفن نفسى فى هذا الكفن؟

كلمات رقيقة، ووجبة العشاء أمامنا على قطعة الشمع الموضوعة هى ذاتها على سجادة .. السجاجيد .. إنها مفخرة التركمان، وهم ينسجونها فى كل مكان، ويضعونها فى كل مكان، وتراها فى كل مكان، وقطعة حلوى صلبة

كحجر من كاراكوم وطبق من (اليخني) غير السميك ورأس ضأن سليمة،  
تبتسم بكل أسنانها البيضاء... ولكن ماذا يهم.. لقد كانت لحظة جميلة.

## نساء

### من سمرقند

وما زالت في نفس المنطقة، بذكرى رقيقة تجاههن أيضاً، ماذا صرن بعد سقوط  
الشيوعية، صديقاتي من سمرقند.. سمرقند شمال تركمانستان بجمهورية  
أوزبكستان، سمرقند حيث انبعثت (من جديد)، في كل آسيا الوسطى  
السوفييتية السابقة، وفرة من المساجد، بعد أن ظلت ممارسة الشعائر شبه محظورة  
طيلة أكثر من ستين عاماً.

ولكن لماذا هذا السؤال؟ لأنه ما من شيء بسيط، كما كان يقول الآخرون،  
ولأنه بالنسبة للمرأة كان للشيوعية التي كثر التشنيع عليها مزاياها أحياناً.

كنا في عام ١٩٨٥، في الجامعة، لقاء بالصدفة في كلية الآداب، قسم اللغة  
الفرنسية، وفلوبير وهو جو يتصدران الجدران. كم كن نضات مرحات متطلعات  
إلى التعليم والعيش، نيلوفار وصوفيا وإلينا وسفيلتا، فارساتي الأربع - فقد كن  
يعبدن «الفرسان الثلاثة» - كانت نيلوفار أوزبكية، وصوفيا يهودية، وإلينا روسية،  
وسفيلتا أرمنية، لكن أديانهن، الإسلام واليهودية والمسيحية، لم تكن على ما يبدو  
شاغلن الأول، فقد كن يفضلن الأدب - «حين أقرأ موباسان أبكى، لكم هو رائع»  
- وككل الفتيات في سنهن كن يتحدثن بحرية عن جبهن وأحبائهن.

وتتذكر نيلوفار، المسلمة، جدتها التي ولدت قبل الثورة الشيوعية في قرية  
مجاورة.

- كانوا فقراء.. فقراء.. منزل من الطين بأرض طينية، ولا ضوء، ولا ماء، فعليها

أن تسير حتى القناة .. ستة أطفال وغرفتان معتمتان يتكومون فيهما ... وانظري إلى الآن، إنني أرتدى بلوزة وجوباً وصندلاً! أما جدتي فكانت تزح تحت حجاب ثقيل من شعر الخيل يجرح وجهها حين تعرق - والجو حار لدينا كما ترين، وحينما زوجها فقد كانوا يبيعونها، وهي لم ترفى حياتها كتاباً اللهم إلا المصحف، وبالطبع فقد كانت أمية .. أما أنا فإني أدرس، وأمارس الرياضة، وأتمتع بالرعاية الصحية ووسائل الراحة .. وسأزوج من أريد.

## أن تكون يهودياً

### وأوزبكياً.. وفارسياً

وماريك .. أين هو الآن في عام ١٩٩٨؟ ماريك رودينوف، في التاسعة والعشرين .. مصور .. لقيته بعد أيام بالصدفة تحت سماء أوزبكستان نفسها. وبدأنا نحتسى الشاي معاً، ونحن جالسان على إحدى الأرائك، التي تمتلئ بالسجاد والطنافس، واحدة من تلك (التشايكات) المقامة في ظلال كرم غنب حيث قدم نفسه لي باعتباره يهودياً وأوزبكياً وفارسياً.

لكم هو معقد هذا النسب الثلاثي.

ذات مساء في سمرقند، في أحد أفنية مجمع المساجد البديع المسمى ريجويستان، عرض لباليه سوفيتي ككل عروض الباليه السوفيتية، حين بدأ طائر خفي يغرد، أغنية تنبعث في الليل، من عش قائم في مكان ما بين الموزايكو، ويا لعجب صديقنا اليهودي الأوزبكي الفارسي .. والذي كان في تلك الليلة فارسياً في الأساس.

- اصغى له! إنه هو نفسه! الطائر الجميل الذي تصوره منمناتنا الفارسية القديمة.

والحق أن المفكرين والفنانين والشعراء الذين يلمسون قلب ماريك، اليهودى بفعل الشمس والتاريخ، يحملون جميعاً أسماء فارسية. عمر الخيام وحافظ والفردوسى...

---

## آسيا الوسطى..

---

### القريبة البعيدة

---

ولكن فلتتوقف الذكريات، ولنعد إلى إيران، وإلى شهر يونيو ١٩٩٧، مستنداً بشدة إلى عصاه كان رجل ذو سمات صينية يطلع على طول ممرات هذا التجمع الحديث الواسع المسمى الحديقة التكنولوجية. ويقع مركز الأبحاث التطبيقية هذا، مفخرة الحكومة الإيرانية، على بعد بضعة عشرات من الكيلو مترات عن طهران، وتعد زيارة معاملته، ودوره المنخفضة الممتدة على طول البساتين القائمة على أربع زوايا، أو بالأحرى على الأوراق الأربع للزهرة الفارسية، ضرورة لكل صحفى يمر هنا.

كان الأمر كذلك بالنسبة لطاهر مالك، المعوق الذى وصل لتوه من آسيا الوسطى، من مدينة طشقند الجميلة عاصمة جمهورية أوزبكستان، ولما كنت مدعوة مثله لتأمل هذه الأماكن، فقد سرت إلى جواره، ببطء لأنه كان يعرج.

وإذا حكمنا بسحنته المكتتبة التى كان يجرها معه كما يجرساقه من قسم إلى آخر، والاهتمام الذى يصطنعه بأدب للإيضاحات التى تسهب المترجمة الإيرانية فى تقديمها له بالروسية، فإن هذه الآلات والقوارير والأنابيب وغيرها من الأدوات لم تكن تشير مشاعره أبداً.

ثم هاهو يتوقف، ويدور حول عصاه، وبعد أن يفتش فى جيوبه يدس بطاقة زيارته بيده فى يدي، إنه لا يعرف كلمة إنجليزية واحدة، ولكن ماذا يهم؟ فطاهر مالك هو رئيس تحرير «أوزبكستان كونتاكت إنترناشيونال مجازين»، وهو فى

المقام الأول أديب ، ومجلته تعكس آراء رابطة جمهورية أوزبكستان للعلاقات الدولية في الحقل الثقافي .

كانت «أوزبكستان كونتاكت» التي أخرج صديقنا عديدين أو ثلاثة منها من حقيبتها العتيقة تثير حيرتي : لماذا هذه الافتتاحيات المعنونة «أجراس الحرية» في أوزبكستان المسلمة التي لا ترين فيها أبداً أى ناقوس ؟ وإن كانت الصفحة الثالثة تنشر رسالة موقعة باسم بيل كلنتون تذكر أن الولايات المتحدة ، حيث تدق الأجراس بقوة ، «كانت أول من فتح سفارة في طشقند منذ سقوط الشيوعية ( ... ) وأن الشعب الأمريكي لن يتوقف أبداً عن مساندة الشعب الأوزبكي في رغبته في إقامة مجتمع ذى اقتصاد نابض» .

## حزام الأمن

### وحزام العفة

- نعم .. إن الدولة الأمريكية هنا ، تنشر صنائعها في آسيا اوسطى .. وليست وحدها .. إنه السباق المجنون من أجل الغاز والنفط .. فجارتنا تركيا تنسج بدورها شباكها في المنطقة ، ملوحة بإحدى يديها بورقة الشاعر التي تربط ماضيها بماضى التركمان مثلاً ، وباليده الأخرى ورقة المشاريع (البيزنس) .

في مكتبه الصغير بشمال طهران ، حيث علقت صورة رامبو الشاعر الفرنسى الكبير ، يظل مراد صاغافى يلقي نظراته الزرقاء على هذا العالم الفارسى الذى هو عالمه ، والذى يعيشه .. كم من مرة استدعته السلطات لكى «يدافع عن نفسه» ، وقد اختار الشجاعة راية له : وصحيفته «الحوار» الاجتماعية الثقافية التي توزع أربعة آلاف ومائتى نسخة هي واحدة من هذه المشاعر الصغيرة التي تتوهج بضعة منها في جمهورية إيران الإسلامية .

ويستطرد قائلاً :

## صورحية من إيران:

- وككل الإيرانيين، كانت آسيا الوسطى بالنسبة لى فى المقام الأول، هى أقاصيص طفولتى، فتيات سمرقند بضفائرهن السوداء كالليل، وعيونهن الداكنة كالعاطفة، وحريرهن الناعم نعومة بشرتهن. إن قصائد فارسية لا تحصى تحلم بسمرقند.. مدينة الأحلام.

ويتوقف فترة..

- لقد سرت الشيوعية منا جميعاً سنوات طويلة أبعدتنا فيها عن بعضنا بعضاً رغم أن قروناً من التاريخ تربط بيننا.. وما إن سقطت الشيوعية حتى... تصورى جموع الأذربايجيين الذين اندفعوا نحو الحدود لكى يقدموا تحية العام الجديد، تحية النيروز، العام الفارسي الجديد، لأشقائهم فى الجنوب الذين يعيشون فى إيران! إن الأذربايجيين شيعة مثلنا، وستكون العلاقات معهم، ومع الطاجيك الذين يتحدثون الفارسية، أسهل من الطوائف الأخرى فى آسيا الوسطى ممن يعتنقون إسلاماً سنياً، ويتحدثون لغات أخرى.

وما موقف السلطات الإيرانية من هذا كله؟

- صحيح أن الرئيس السابق رافسانجاني كان معمماً، لكنه كان كذلك واقعياً، لم يغب الاقتصاد أبداً عن نظره، وحين التحقت إيران فى عهده بالسوق المشتركة لبلدان آسيا الوسطى فقد انضمت إلى جيرانها فى الشمال فى الساحة الاقتصادية. أما الجانب السياسى فأقل مثالية رغم أن هذه الجمهوريات الشيوعية السابقة هى فى نهاية الأمر حزام أمننا الجغرافى فى مواجهة روسيا بأطماعها.. ذلك أن هناك حزام أمن... وحزام عفة، أفلا يتهدد حزام العفة هذا الذى فرضته إيران على نفسها بأن يتفجر ذات يوم؟

## ثمانى سنوات منذ (وفاته)

11

٤ يونيو ١٩٩٧... ليس ثمة مجال للملل أبداً فى طهران فى هذه الأيام، على الأقل فى الساحة الدينية - السياسية أو السياسية - الدينية، وهو نفس الشيء، فما

كادت ملصقات المرشحين في الانتخابات الرئاسية - ومن بينها صورة الرئيس المنتخب محمد خاتمي، سحنة مثقف حقيقي، شاحب هزيل يرتدى نظارات - تتآكل على جدران المدينة حتى حلت محلها آلاف اللافتات العملاقة والملصقات والملصقات الذاتية، تبكي جميعاً الخميني، الذي لحق بربه في هذا اليوم نفسه منذ ثماني سنوات.

وفي كل مكان في المدينة ترفرف رايات سوداء.. وأوصدت دور السينما.. وعلى نغمات حزينة تنبعث من آلات التسجيل بلا كلل، مراثي الراحل، ورأيت مذيعة التلفزيون وقد ازدادت الحلقات حول عينها سواداً، إلى جانب رداء الحداد الذي ترتديه كل يوم.

كنت قد هبطت في طهران في الليل ووجدت نفسي أتحه دون تمهيد في الصباح الباكر، في جو حار كالرصا، نحو عالم آخر، في الطريق إلى بيتشي - زهرة، على بعد نحو ثلاثين كيلو متراً عن العاصمة، وفي بيتشي - زهرة تمتد صفوف من الميادين ذات البواكي، وتنتصب مساجد تناطح مآذنها السماء، في بيتشي - زهرة يرقد الخميني، تحت ذهب ضريحه، في بيتشي - زهرة تمتد إلى ما لا نهاية أضرحه شهداء الثورة وشهداء الحرب المقدسة التي «فرضها» العراق، على جمهورية إيران الإسلامية.

واليوم في بيتشي - زهرة يعيش ويصرخ ويبكي ويجلد نفسه هذا الإسلام الشيعي الذي يكاد يعجز عن فهمه من لم يولد فيه.

## نرحل في

## سبيل الله

وقفة صغيرة لنا في الطريق، في مسجد متواضع للغاية، في الضاحية الجنوبية، والفقيرة، للعاصمة، ولكن أين ذهبت إذن تلك الكراهية للغرب التي طاما تصايحوا عنها لدينا؟ ألم تصب الحماسة الداعية إلى الشار سوى بضعة عقول



متهورة؟ أم تراه ببساطة الطابع المقدس للذكرى السنوية لوفاة الإمام هو الذى يدفع الإيرانيين اليوم إلى الوداعة؟ وتلقائياً تقدم لنا، نحن خدم الإمبريالية، كوب ليموناده الصداقة.. وترحيباً بنا أخذ صبي لا يزيد طوله عن ثلاثة أشبار يكس بحماس بلاط المسجد، حيث علق على الجدران بهذه المناسبة معرض صغير، صور الخميني، وحياته، ووفاته وقداسته، وأخذ مكبر صوت مقطوع الأنفاس يصدر أناشيد بألحان عسكرية هي فى الواقع مراث لا تنتهى فى ذكرى الراحل.

وقبل خمسة كيلو مترات من بيتشى -زهرة كان المرور متوقفاً، فقد هرج الجميع من كل إيران، من جبال الشمال والسهول والصحارى، من المدن والقرى، وكثير منهم فى حافلات محاطة بالملالي، رحلة مجانية تتكفل بكل مصاريفها المؤسسات الدينية الغنية، وهنا تبدو قوة الثورة الإسلامية، التى عرفت كيف تشغل الناس العاديين، وتوفر لهم وهم المشاركة فى صنع مصيرهم، وتدفعهم إلى النزول إلى الشارع، وتخرج من المنازل نساء لم يجتزن أبداً عتباتها. هناك تظاهرات فى الشارع يصرخ فيها الناس ضد أمريكا، ملوحين بقبضاتهم، أو ضد إسرائيل مهددين بأنهم ذات يوم سيخلصون القدس من الاحتلال الصهيونى، وهناك مزارات الحج.. بعضها قريب وبعضها بعيد مثل ضريح السيدة زينب المتوهج فى سوريا قرب دمشق، وهناك الاحتفالات السنوية بذكرى ولى ما، كاحتفال اليوم بذكرى الخميني القديس.

وزين رجال شرطة المرور أزياءهم السوداء بأشرطة خضراء عريضة كتب عليها بحروف بيضاء كبيرة تغطى صدورهم «المجد للحسين | المجد للخميني |» وانضموا إلى الإيرانيين الذين يتدفقون نحو المزارات المقدسة، شيعة من أذربيجان، ومن تركمانستان، ومن أفغانستان، ومن باكستان، ومن الهند وغيرها. وفى هذا الطريق الذى يسير فيه الجميع فى سبيل الله تختلط وتمتزج الحافلات وسيارات النقل الكبيرة والصغيرة والمقطورات والسيارات الخاصة والموتوسيكلات التى يستقل كل منها أربعة أشخاص وسيارات الأجرة التى تغص بعشرة ركاب، وكلها تمتلئ بلوحات من الأشعار والصور المقدسة.

والإنهاك يغلب مجاذيب الرب الذين جاءوا على أقدامهم يتلون بين الصفائح الحارقة، لكنهم مع ذلك يلوحون بإحدى أيديهم برايات الإسلام الخضراء،

ويحملون في أيديهم الأخرى (ترامس) المياه الباردة.

وعند أحد الممرات الجانبية يرقد جسد كاميون مغطى بنسيج أسود كأنه نعش . ودوارق ضخمة من عصير البرتقال تقطع ببقع من الضياء المنصات التي نصبت في كل مكان تقريباً على حافة الطرق ، وحولها جميعاً تتدافع وتتراص جموع حاشدة ترتدى السواد ، فالتقاليد تقضى اليوم بأن تكون المشروبات والأطعمة مجانية ، والله هو الذى يدبرها .. وكثيرون في حاجة إليه إذ يتدهور الاقتصاد الإيراني بسرعة .

---

## ما من غريبي

---

## في الأفق

---

درجة الحرارة خمسة وأربعون في الشمس... والغبار... والسهل أبيض من الحر، والجبال لا تكاد ترسم وقد غمرها الضوء.. وأخيراً تلوح بيتشي -زهرة، المشهد غائم.. مرتعش، ولا يبدو واضحاً ومشرقاً سوى القباب المغطاة بذهب رقيق. وعند الظهيرة كان الذهب وحده هو الذى ينافس الشمس في توهجه.

وأوقفنا عربتنا في بقعة جرداء، ثم سرنا على أقدامنا على أرض صلبة كالحجر بفعل الأقدام التي وطأتها، ها نحن في الأماكن المقدسة، نستنشق الهواء يمتلىء ورعاً، وحولنا ينساب على الدوام تيار الحجيج الهائل - وتقول الصحف إنهم يتراوحون بين مليون ومليونين - كنت أعتقد أن السواد قاصر على النساء، لكن كثيراً من الرجال يرتدونه هنا رمزاً للحداد. ويتوقف الكثيرون طويلاً أمام اللوحات الجدارية الضخمة المعلقة في كل مكان تقريباً.. أمر طبيعي ومفهوم، فالصور الشيوعية ساحرة خلاصة، إنها واقعية تماماً ومسرحية للغاية في آن واحد.

والأطفال المنهكون الذين اقتيدوا إلى هنا - وأحياناً من آلاف الكيلومترات - يجرون أقدامهم خلف أمهاتهم، متشبثين بكل قوة أيديهم الصغيرة بشادور أمهم.

## صورة من إيران

وإذا كان كل من هنا يوقرون علماً فإن الحجيح ليسوا جميعاً من نفس الجنس .. على العكس .. ومن هنا كانت هذه العيون السوداء أو البنية أو الذهبية أو الخضراء أو الزرقاء، الواسعة أو الضيقة، المستديرة أو المستطيلة .. ولكن ما من غربي يلوح في الأفق، وحضور هذه الزائرة المصورة التي جاءت من جانب مرآة الدعاية الآخر يجلب لى كثيراً من النظرات .. نظرات طويلة كأنها تصورك، نظرات فضولية لكنها ليست معادية حقاً، بل لقد اقتربت منى عجوز وقدمت لى كهديّة ملصقاً للخميني ينحني فوق فراش طفل مريض، ودعنتى مجموعة من السيدات يجلسن تحت إحدى البواكى بأيديهن وابتساماتهن إلى مقاسمتهن الأرز.

حشود مسالمة للغاية في مظهرها، لكنها عنيفة للغاية .. وهكذا ففي ذلك الصباح، وأمام خطاب آية الله خامنئي، المرشد الروحي الأعلى للجمهورية، ارتفع هذا الهدير الخنوق نحو المنصة، على إيقاع عشرات الآلاف من الأيدي التي تدق الصدور بعنف، ودقات الطبول، وهذه الجباه التي تسيل عرقاً تحيطها عصابات الإيمان الخضراء، إنهم يمثلون الجلد، ولكن حين يستعيد الشيعة ذكرى استشهاد الحسين - كما يفعلون كل يوم - فإن الجلد يكون حينئذ حقيقياً وتسيل الدماء الحر كالرصاص، وبدأت مياه النوافير تتراقص مبللة الحشود التي تتأرجح وتتأرجح، وتتصايح، وتردد، وتردد، وعاشورا خميني! عاشورا خميني، عاشورا خميني! خميني! خميني الشهيد! ... رغم أن الفقيه قد مات بهدوء في فراشه.

## أما أنا فلا أحب

### الملاي

قال سائق التاكسي الذي استقبلنا عند طرف هذا الحشد المشتعل، ووصل بنا، والحمد لله، في النهاية منهكين إلى فندقنا في طهران أنه «إنما جاء إلى بيتشي - زهرة لأن عليه أن يكسب قوته، ولأن الشغل شغل»، لكنه على العكس لم يتحرك

لانتخابات الرئاسة ، ولم يصوت ، كان يقبض على عجلة القيادة بيد واحدة ، ويستدير نحونا وعينه تغادران الطريق في خطورة ، وأخذ يقيسنى ( موضع ثقة ؟ ليست موضع ثقة ؟ ) ، ثم أخذ يرسم بيده الخالية حول رأسه ما يشبه كعكة ، أو هالة .. أو عمامة وقال :

- أنا لا أحب الملالي ! فلا فرق بين عمامة وأخرى . وأنا لا أثق في رئيس من الملالي .

## الضحك

### في إيران

عدت إلى غرفتي .. إلى ملاذى .. غرفتي التى أجد فيها فى النهاية ذاتى ، حيث أذكر أن لى شعراً ، وجسداً .. لم أشعر أبداً بالمعنى الصحيح لما يسمونه لغة الجسد قدر ما شعرت بها هنا حيث هى محظورة .. فما أن أغادر عتبة حجرتى حتى يسود من جديد بالنسبة لى ، فى الفندق كما فى غيره من الأماكن ، قانون الحجاب والمعطف الطويل الذى يكفئك .

الطابق العاشر .. ومن خلف نافذتى تلوح طهران ، وفى الأسفل الفندق ، وزرقة حوض السباحة المهجور ، وشماسيه المغلقة كأنها نوع من الفطر ، والغبار يعلو الأرائك المرصوفة أمام الحائط طيلة أوان الجمهورية الإسلامية على ما يبدو ، والتى لا تبدو أبداً ، حين أنظر إليها من هنا ، مريحة بهيجة .

لكنهم يضحكون فى إيران ، ورجال الفكاهة والكاريكاتير يزدهرون .

ويشبه مسعود صادغيان بوروجينى خالق (الأراجوزات) السياسية التلفزيونية «المصنوعة فى طهران» ، بأنفه الكبير ، ونظاراته ، وأذنيه الضخمتين وبشرته الوردية حتى وكأنها صنعت من البلاستيك ، يشبه العرائس التى يصنعها ، اللهم إلا إذا

## صور حية من إيران:

استثنينا نظرتة، الحية، الحساسة، على نقيض ثبات الألياف الزجاجية للعيون الاصطناعية.

وهي أيضاً نظرة تتسم بقدر خفيف من الريبة، فتصوير الوزراء في هيئة عرائس ليس عملاً مريحاً، فالأشخاص المعينون... عفواً... أقصد الأراجوزات، قد ركزوا ذات يوم على الرف، وحرّم الجمهور الإيراني من ضحكات يزيد من الترحيب بها أنها نادرة، وذلك بالرغم من أنه كان لها (أو ربما لأنه كان لها؟) جمهور واسع جداً، وفي البداية نظمت عروض العرائس مرتين في الأسبوع، ثم أخذت تقل، لتختفي ذات يوم من الشاشة.

فهل ستشهد عودتها ثانية؟ أفلم يثبت الرئيس الجديد خاتمي أنه رجل يحب الفكاهة؟

## رجال

## وفئران

غير أن كل شيء بدأ بداية طيبة.

- كنت قد قضيت عشر سنوات أصنع العرائس لأفلام الصور المتحركة للأطفال، قصص بريئة عن الفئران، ثم ياللعجب فوجئت في بداية عام ١٩٩٦ بإدارة القناة الأولى تطلب منا عرائس أكثر التزاماً.

وهكذا انتقل مسعود صادغيان بوروجيني من الفئران إلى الحيوانات السياسية، معيداً تشكيل رءوس عشرات من الشخصيات الإيرانية بإسفنج المطبخ من الماركة السائدة.

- كان على أن أتدبر أمرى بما لدى، من المستحيل أن تعثر في طهران على المواد الاصطناعية التي كانت ستسهل عملي كثيراً، والقليل الذي نجده منها مستورد

ومرتفع التكلفة جداً، خاصة وأنه كان على أن أدفع الثمن من جيبي، فإذا راقى العرائس لمدير القناة فهذا حسن، أما إذا لم ترق فالغرم على.

ورغم أن فنانياً كان مضطراً إلى أن يدبر نفسه بنفسه فقد تمكن من تحقيق قدر من الشبه بالشخصيات الأصلية حتى أن بعض من صورهم، أو أقاربهم، قد أبدوا استياءهم «يشهد الله أنني لم أنجب ابني على هذا النحو» هكذا صاحت أم إحدى الشخصيات الرفيعة. واشتكى أحد الوزراء من العروسة التي تصوره قائلاً إنها أكثر صلماً مما يجب. لكنه تلقى من المتهم رداً قاطعاً «فلتشكو لله ياسيدي وليس لى».

وإذا تعلق الأمر بوزيرة يا سيد صدغيان؟

- حتى لو كانت قبيحة كالقرد فمن المستحيل أن نحولها إلى (أراجوز)، فالدين يحظر السخرية من صورة المرأة.

ويزيد من قيمة الفنان أنه كان عليه أن يرتجل.

- لم يكن تحت يدي أى نموذج، ولا حتى أى صورة يمكن أن أستلهمها، وفيما بعد فقط اكتشفت (أرجوزاتكم) السياسية فى أوربا، حين منحتنى السلطات أخيراً تصريحاً خاصاً يسمح لى بالتقاط البرامج الأجنبية بالقمر الصناعى.

## الفكاهة وظيفية

### لطيلة الوقت

تشغل مكاتب مجلة «جولاغا» الساخرة مبنى أبيض صغيراً فى شمال العاصمة، ومنذ قاعة الاستقبال يشعر الزائر بالجو السائد، ودهشت لمرأى إناء فخارى صغير معلق على الحائط، وقد شقت بطنه الصغيرة كأنها حصالة وجاءنى الرد:

- إنه صندوق الشكاوى.

ولماذا هو صغير هكذا؟

## صورحية من إيران:

- لأنه ليس فى إيران محل للشكوى .

ويدين التلفزيون الإيراني بإبداع سيناريوهات وحوار (الأراجوزات) السياسية  
لخيال فناني «جولاغا» .

ويعترف أحد المحررين لى :

- تعرضنا لضغط شديد قبل أن نبدأ ، فلم يسبق أبداً عرض أى سخريه سياسية  
على الشاشة الصغيرة ، ولما كان التلفزيون مملوكاً لدولتنا الإسلامية الخبيرة فإن  
هذا يبين لك أين يقع الخط الذى لا ينبغى تجاوزه ... وبشرط صريح هو ألا توضع  
أسمائنا فى المقدمة . وقد انتهينا بإعطائهم نحو خمسين سيناريو أثار تنفيدها ، كما  
تعرفين ، ردود فعل شديدة فى الدوائر العليا ، ومن ناحيتنا فى «جولاغا» نشعر بأنه  
كلما مرت الوقت قلت قدرتنا على أن نوقف ... أقلامنا .. ولاحت أمامى اللحظة  
التي سننتهى فيها بالإنزلاق إلى نقد الحكومة ... الحقيقية .

وبالطبع كان محدثى يعنى بالحكومة الحقيقية آيات الله المعصومين الذين لا  
يمسون .

وعندئذ ؟

- عندئذ قلنا : قف .. خطر .. قف ! وقد حاول كتاب السيناريو التلفزيونيون  
بعدئذ أن يكتبوا قصصاً بأنفسهم ، لكنها كانت عديمة القيمة .. كما هو شأن  
تلفزيوننا على أى حال .. ولنا أمل مع قدوم خاتمى أن تهب الروح ثانية ، ولو نسمة  
رقيقة .

إن صناعة الفكاهة وظيفة لطيلة الوقت ، وأخيراً يصل صبرى مدير جولاغا بعد  
أن انتظرناه طويلاً لكثرة مشاغله ، بنية صغيرة يعلوها شعر أشيب ، وقميصه  
اللازوردى مفصل جيداً ، كشاربه الكثيف ، إنه يفيض (شقاوة) ، ولا يخلو من  
نفحة أسى .

- نعم .. الضحك والمأساة ، تلك هى الحياة ..

وماذا عنك أنت ؟

- كنت معلماً ، وكنت أتوقع أن أظل هكذا طيلة حياتى ، حتى اختارونى لأكتب

عاموداً يومياً ساخراً في أوسع صحف إيران انتشاراً - «اطلاعات»، وأعجبهم قلمي، وربما لم تكن اللحظة مناسبة، فقد كنا في عام ١٩٨٤، في قلب حربنا ضد العراق، حيث لم يكن يلوح أن ثمة أدنى مكان للابتسامة، في حين لم تكن الدعاية المعادية في الجانب الآخر من الجبهة تكف عن السخرية بملاتنا، مرددة أنهم لا يستطيعون سوى شيء واحد هو: دفعنا إلى البكاء. والحق أن الإمام الخميني نفسه كان يساند دعاباتي قائلاً «لم يكن الضحك أبداً يمثل هذه الأهمية لنا».

## أكثر من

### مجرد مهرج

إنه أكثر من مهرج. أفلم يكن مدير جولاًغا المستشار الثقافي لآية الله خامنئي المرشد الروحي الأعلى لإيران؟ ومستشار الرئيس الحالي خاتمي وقت أن كان هذا مكلفاً بوزارة الثقافة والإرشاد الإسلامي؟ ومكلف هو الكلمة الصحيحة فالحق أن هذه الوزارة كانت عبئاً ثقيلاً لأنها هي التي تقرر تطبيق أيديولوجية النظام بكل جوانبها.

ووقف صبري، ثم أمسك بصورة قائلاً:

- انظري! ها هو خاتمي يسلمني جائزة، جائزة لي أنا، ساخر النظام، وماذا كان جزاؤه عن هذا؟ لقد عزل بعد يومين.

كان المحافظون يأخذون عليه عقليته شديدة الانتقاد فأقصوه عن منصة كوزير للثقافة في عام ١٩٩٢.

- وحين أفكر في الأمر فإن الفضل لخاتمي في انبعاث جولاًغا. قال لي ذات يوم «كم هو مؤسف أنك بكل هذا الذكاء عاجز عن الإمساك بقلم!». ولم أنس ملاحظته، واقتراحه بأن أرسم الصور الكاريكاتيرية، وفي عام ١٩٩٠ أحييت



صحيفة جولاًغا، التي أقيمت في عام ١٩٦٩، وكانت موجودة بالفعل منذ أيام الشاه.

وكم كان حكيماً في هذا البعث، فالحق أنه إذا كان من الممكن فرض جمود فكر وحيد فإن الرسم، من جانبه، مرن، كالحية، ويرى صبرى أن بعض فناني اليوم أكثر حداقاً وموهبة من أيام الشاه، ويختتم حديثه واعظاً قائلاً إنه إذا كانت السياسة تتغير فإن الإنسان خالد بغروره وحماقته... ومن هنا يأتي خلود الرسم.

وتصدر جولاًغا في ثلاثة أشكال أسبوعية وشهرية وسنوية. وجولاًغا السنوية مجلد ضخم، وهي وإن كانت مصورة فإنها في النهاية تعطى النص حقوقه إذ تنوجه إلى القارئ الذي يفكر، وتحلل آليات السخرية، مضيفة إلى حصاء العام المنقضى صفحات من التأمل العميق.

الفكاهة - أسمى هذا فناً؟ إن مدير جولاًغا لا يعبأ بما يقوله الناس، خاصة لأن التوزيع ينبيء بأيام مشرقة... حتى ١٥٠٠٠٠ نسخة لجولاًغا الأسبوعية، حين لا تكون هناك ندرة في الورق بالطبع. وهي نتيجة طيبة بالنسبة لبلد فقير...

... حيث لا تذهب الصحيفة مباشرة إلى سلة المهملات بعد قراءتها كما يحدث في بلدانكم الغنية يا سيدتي، وإنما تعيش حياة أطول، وتقرأ وتعاد قراءتها، متنقلة من يد إلى يد.

ولدى جولاًغا عدد كبير من المشتركين خارج إيران... بين الشتات الإيراني، وإنما كذلك في أوزبكستان وطاجيكستان وأفغانستان وباكستان والهند، وباختصار حيث توجد جماعات ناطقة بالفارسية.

## سخرية

### بلا حدود

ومجلة «كايهام كاريكاتير» أكثر فنية من جولاًغا... إنها متعة حقاً... يالهؤلاء الإيرانيين! يالركة الخطوط والخيال والتلميحات... إن هذا الطفل الذي ولد في عام ١٩٩٢، وتدعمه الحكومة، يشب بقوة، وتوزيع المجلة يتزايد.

سخرية بلا حدود... كما يشير اسمها «كايهام كاريكاتير» الذى يعنى بالفارسية «الكاريكاتير العالمى» - لا تستقبل سوى المواهب المحلية؛ ويترجم الفهرست بالإنجليزية، ويجرى تبادل الرسوم مع المجلات الأجنبية الشقيقة، وتنظم المباريات والمهرجانات الدولية فى طهران، وكان موضوع مهرجان عام ١٩٩٧ هو البيئة، ورسامو جمهورية إيران الإسلامية معروفون فى كل الاتجاهات!.. وهكذا نال لالى زياكى عام ١٩٩٦ جائزة الكاريكاتير المهيبة التى تمنحها كل عام صحيفة «يومبورى شيبوم» اليابانية.

## ارسم لى

### حملاً

- أتحدثين الفرنسية يا سيدتى؟ وأنا أيضاً.. هل تعرفين؟ إنى أعشق الرسامين الفرنسيين.. أعشق بلانتو.. وسيمى الأخلاقى! وفولون لهدوء ألوانه ومشاهده التى كأنها التقطت من طائرة هيلوكبتر!

إنه رجل دافئ ودود، له حلية فنية أكثر منها إسلامية.. إن مسعود شوجاى طباطبائى رئيس تحرير كايهام كاريكاتير الشاب هو روح مجلته، وواحد من أفضل رساميها.. وتخصصه؟ الخراف.

خراف ثم خراف، مروسومة بخطوط مرتعشة، خراف فى شرك أوضاع مجنونة بقدر ما هى سرىالية، يرجى من القارئ ألا يرى فيها تلميحاً إلى.. (واختر أنت الشخصية).

لكن الصديق شوجاى لا يغفل مع هذا الدجاج!

- إن الصعوبة التى يواجهها رسام الكاريكاتير فى إضفاء الحياة على... كتلة امرأة فى الشادور.. هى التى توقف.. ريشتى.. وهى التى تدفعنى إلى أن أرسم دجاجاً

أدعه يتخذ أوضاعاً.

## سينمائية

## وهامشية

قبل أن تقف أمامي للتصوير، في ضوء شرفتها في شمال طهران، ارتدت ياسمين أولاً معطفاً، ثم جرت تبحث عن وشاح تغطي به رأسها:

- صدقيني أننى لست وحدى فى ذلك. فهنا لن تقبل إيرانية أبداً أن تصور دون أن يغطيها الحجاب.. هذا هو القانون.. وويل لمن يخرج عنه.

كليك! وفى البداية صورة دون ابتسامة.. واحدة من تلك الصور التى تروق لبعض الإسلاميين الذين لا يعتبرون المرأة التى تعرض علناً ابتسامتها امرأة جادة.. فلنستمر.. كليك! كليك! كليك! وبعد بضعة (كليكات) غدا الأمر أقوى منها، ولم تستطع ياسمين أن تمنع التماح ابتسامة.

- إن ما يقتلنى، وصدقينى، هو أن يكون على دوماً أن أكبح تلقائيتى.. هو هذه الرقابة الذاتية الدائمة.. وأحياناً ما أضيق بها إلى حد أننى، بعد أن ألقى نظرة سريعة حولى، ينتابنى الجنون فأركل بقدمى وأنا أسير كرة صبية يلعبون فى الشارع.

أن يكون لك وجهان، واحد لديك وآخر فى الخارج.. أليس هذا نصيبنا جميعاً نحن النساء، وأينما كنا؟ وفى جمهورية إيران الإسلامية تبلغ هذه اللعبة الدائمة، لعبة القناع الذى تضعه والذى تنزعه، حداً يكاد يصل إلى الشيزوفرانيا.

- وبالطبع كلما ازدادت علماً ازدادت معاناة.. فالنساء البسيطيات لا يطرحن على أنفسهن كثيراً هذه الأسئلة.

وليس هذا كله سهلاً، حين تكونين - مثل ياسمين - قد تذوقت طويلاً حياة الطائر الحر، حين تكونين قد عشت طفولتك في إنجلترا، ودرست في أوروبا وفي أمريكا. إن ياسمين مالك نصر ممثلة ومخرجة وسينمائية في الأربعينيات، تخرجت من كلية السينما في جامعة كاليفورنيا الجنوبية، ولم تعد إلى إيران إلا بعد الثورة، ومازالت اثنتان من شقيقاتها الخمس تعيشان في الولايات المتحدة. إحداهما محامية والثانية سيدة أعمال. أما الثالثة فتمتلك مشروعها الخاص في طهران... سيدات رائعات بنات مالك نصر هؤلاء.

- تنتمى أسرنا إلى شيراز. وكان أبي ضابطاً في جيش الشاه قبل أن يعمل في العقارات. ولما لم يكن له ابن فقد ركز جهوده علينا نحن البنات وربانا بحرية كما لو كنا أولاداً. وإذا كنت قد عدت إلى إيران فذلك جزئياً من أجله، فقد كان مريضاً للغاية، وانتهى بأن قضى نحبه.

كانت ياسمين تصعدت وهي تسير أمامي ببلوفرها، وجوربها الأسود يلتصق بخطواتها الرشيقة كالغزال، والمبنى فاخر، والصالون مضىء وأريكة بيضاء، وقليل من الأثاث، وسجاجيد ملونة، ونار تتراقص في المدفأة، وجهاز الاستريو يطلق موسيقى باخ في هدوء.

- أتريدين شيئاً؟

---

## عودة إلى المطبخ،

---

## وعودة إلى الحديث.

---

- نعم... إنها شاقة هذه العودة إلى إيران! أذكر في ذلك الحين أن مخرجاً شهيراً... نعم هو من ذكرت ولكن لا تشيرى إلى اسمه... أذكر إحدى ملاحظاته التي أبداها لي نصف جاد ونصف ساخر. كنا في أصفهان، أثناء مهرجان الأفلام الإيرانية، ونحن نسير على طول ممر محاط بالأشجار، حينما رحلت في إحدى تلك

الحركات الفرحة بالحياة التي تنتابني أحياناً أتقافز لكى ألتقط ورقة شجرة، وفركتها ورحت أشممها، أترانى أسأت إلى نفسى إذ أضفت إلى هذه الحركة قدراً من التدلل، فقال لى «خذى حذرک يا صغيرتى، فأنت تتصرفين كما تحسين، وتبدین صراحة ما تشعيرين به.. فإن هم أزعجوك ذات يوم فلن يكون ذلك بسبب قصة حجاب بسيطة، وإنما لأنك تجاسرت على أن تكونى ذاتك».

## أبناء؟..

### تكفينى أفلامى

بحكم ماضيها فى الخارج؛ ولأنها تعيش وحدها منذ طلاقها، وهذا أمر نادر، نادر للغاية فى إيران؛ ولأنه ليس لها أبناء وترفض أن يكون لها رغم عنف الضغط الاجتماعى، فإن ياسمين مالك نصر تجسد فى الجمهورية الإسلامية صورة الهاشمية.

.. أهذا يشغل على؟ نعم ولا، نعم لأنى أشعر أحياناً بالوحدة، وخاصة حين لا أعمل، ولا لأنه فيما يتعلق بالأبناء فإن أفلامى تكفينى، وأشق أمر على هو أن أطوف بمكاتب هؤلاء السادة مطالبة بتمويل فيلم، وأعرف أن أمر كذلك فى كل مكان، وأن على المرأة أن تبذل جهداً مضاعفاً لكى تنجح، لكن الأمر هنا أسوأ، فأنت تصطدمين بأيدى لولوجية، أن تحاصرى مكاتب المديرين، وكلهم من الرجال، وأن تقتحمى أبوابهم، وتتصلى هاتفياً، وتعيد الاتصال، وباختصار أن تواصلى الإلحاح فى حين أن من المفروض أن تعيشى بعينين خفيضتين، وقد أغلقت حجابك على حياتك، هذا أمر غير متصور، ويبقى السيناريو الذى قدمته هناك، ويعلوه الغبار... لماذا لا تقيم الحكومة مؤسسة لدعم المخرجات؟

ولما كان دعم الحكومة يتناقض يوماً بعد يوم فلا يبقى إلا المنتجون الخاصون.

وتمضى ياسمين فى اعترافاتها:

- ليس هذا أفضل دائماً ، فأغلبهم يتحدثون بلغة البيزنيس ، والبيزنيس هو البيزنيس .. وهذا كل ما هناك ... فمن منهم سيكون مستعداً اليوم لأن يستثمر في أسلوب مثل أسلوب كاريوستامى على سبيل المثال ؟

كان فيلم عباس كاريوستامى الرائع «مذاق الكريز» الذى فاز بالسعفة الذهبية فى مهرجان كان ١٩٩٧ تأملاً فى الانتحار والحرية ، فى الرغبة فى الموت وجمال اللحظة ، لكنه فى الواقع أيضاً فيلم صعب استبطانى ، يكاد يخلو من الحركة .  
وتسر لى المخرجة

- من المفارقات أن سيطرة سلطانتا على السينما لم تكن لها جوانب سيئة فحسب .. لا عنف ، موضوعات إنسانية ، والأفلام مولة من الألف إلى الياء ، وكان بوسعنا أن نمارس متعة العمل على مهل ، بل حتى أقول إن القيود التى فرضت علينا قد أشعلت بشكل ما خيالنا وأجبرتنا على أن .. نكون أذكاء .  
وضحكت ياسمين .. ضحكة ساحرة .. ساحرة مثلها هى .

بصراحة ألا تحسبن أحياناً بنوع من المسئولية تجاه أولئك اللاتى لا يتمتعن لا بجمالك ، ولا بقوتك ، ولا بمواهبك ولا بحظك ؟

- بالطبع أشعر بذلك ، بل إننى هنا من أجلهن .. هل تعرفين فيينا ؟ كنا نسير فى الممرات المليئة بأوراق الشجر الميتة عائدتين من المسرح ، أنا وأحد الممثلين النمساويين ، حين تفجأة ، والأمطار تسيل من مظلتى على مظلتى : « اسمعى ! إذا أردت نصيحتى عودى ! عودى إلى إيران ، عودى إلى وطنك ، وليس فقط من أجل صحة والدك وإنما من أجل النساء ، ألا تدينين لهن بذلك ولو قليلاً ؟  
وعندئذ ؟

- وعندئذ رنت هذه الكلمات فى ذهنى ! .. وشعرت بالطبع بقدر من الخوف من العودة إلى إيران ، الشرطة .. والمخبطرات .. والنقاب ، لكننى فكرت فى النساء ، وخاصة أولئك اللاتى ولدن مع الثورة ولم يعرفن أبداً شيئاً آخر إلا هذا الغطاء على حياتهن ، فكرت فى أولئك الذين يمكن أن أنقل إليهن خبرتى ، فكرت فى الطاقة التى يمكن أن أعطيها للجميع من أجل مواصلة المقاومة .

## جاسة

## برجمانية مغلقة

عندما عادت ياسمين إلى إيران لم تكف عن العمل، وها هي مبعدة مزاحة جانباً، وأفلامها تستقبل باعتبارها «مشوشة» لأنها تصطبغ «بعقلية قادمة من الخارج».

صحيح أننى لا أعمل فى تربية الجماهير... ولك نفرق بين ذلك وبين أن تقول إننى لست إلا هامشية لا تعبر إلا عن هامشين أن تقول إن «السيدة مالك نصر لا تمثل سوى واحد فى المائة من السكان، ولا تختار موضوعاً لها إلا واحداً فى المائة من السكان، ومن ثم فإن أفلامها لا تخاطب سوى واحد فى المائة من السكان» أى حماقة! خذى فيلمى «نفس الألم»، ورغم التوزيع غير المنطقي مثل رقيبنا العزيز، فإنه مع هذا قد ملأ قاعة العرض سبعة أسابيع متتالية. وإذا كان فيلمى «قصص الأطفال المدللين»، قد اجتذب الشباب الإيراني، وهو الذى ولد وتربى فى ظل الروح الثورية الصلبة، فما ذلك إلا لأنهم وجدوا أنفسهم فيه بشكل ما، «نفس الألم» عنوان مقتبس من أحمد شملو أعظم شعرائنا المعاصرين، إن «نفس الألم» قصة عن أحد المثقفين كتلك التى كثيراً ما نراها على الشاشات الأجنبية... إلا أنها هذه المرة تتحدث عنا نحن، عن رجال ونساء فى الجمهورية الإسلامية يفكرون، ويعانون لأنهم يفكرون.

إنه أشبه بجلسة مغلقة تذكرنا بأفلام برجمان، التقطت فى شقة بورجوازية فى شمال طهران، وتجرى أحداث الفيلم فى ليلة واحدة، ويعود الماضى فى (فلاش باك)، أما المستقبل المتخيل فيظهر فى (فلاش فورواد)، وتلك أول مرة تستخدم فيها هذه الطريقة فى السينما الإيرانية، وشخصيات «نفس الألم» أربع، رجلان وامرأتان، يتلقون ويتصادمون ويتفلسفون حول مائدة عيد ميلاد: الحنين إلى الماضى، والزيجات الفاشلة، والاعترافات بالعزلة، بالعجز، مع خيط رفيع من الأمل رغم هذا كله.

وأمام خلفية الحوارات ترسم حياة جانب كبير من المثقفين الإيرانيين، وهى حياة مأمونة نسبياً، طالما أنك لا تسلط الضوء على آرائك. لكنها حياة تفتقر إلى الهواء، إنها فى الأغلب حياة من الانطواء، على ذاتك، أو محاطاً بحفنة من أصدقاء يشبهونك وتشق فيهم.

فيلم إيرانى للغاية حتى بحجاب بطلاته، فهذا الحجاب لا غنى عنه كى تمر من الرقابة، حتى إذا لم يكن لوجوده فى هذه الحالة أدنى معنى - إن شخصيات «نفس الألم» شخصيات عالمية، ربما كانت نماذج، لكنها ليست عينات للدعاية.. «وصورة للمرأة المستقلة كما لم نراها فى السينما الإيرانية منذ «الطوب والمرايا» لإبراهيم جولستان منذ ثلاثين عاماً» على حد قول الكاتبة ميهان بهرامى التى تضيف «ورغم أن سينمائيينا قد يزعمون العكس فإن رغبات المرأة، رغبات روحها ورغبات جسدها، لم تجدد أبداً تعبيراً عنها، والقليل الذى يقدم لنا مشوه دائماً إذ يأتى من منظور الرجال، وما يجعلونا نراه من المرأة ليس سوى مخطط غامض وليس أبداً صورة حقيقية».

إنها لمحات يفهمها المشاهد الإيراني المدرب.. فى لمحة عين، شأن وجود صورة فوتوغرافية - رمزية فى «نفس الألم»، صورة الشاعرة فروغ فاروخاد، التى توفيت شابة فى الثانية والثلاثين، لقد تجاسرت فروغ المتمردة على أن تتغنى بالحب الحسى، وشاركت فى السياسة، وباختصار عاشت حياتها القصيرة الممزقة مليئة. وإذا كانت الفتيات يقرنها فإن جانباً من كتاباتها محظور منذ الثورة.

وتبتسم ياسمين قائلة:

- كثيرات من المراهقات يكتبن لى اليوم يشبهننى بها: «يا لشجاعتك يا ياسمين.. لقد أصبحت فى نظرنا فروغ أخرى، نموذجاً يساعدنا على أن نعيش».

---

## التزام ومديح

---

### وهجوم

---

«نفس الألم» منذ اليوم الأول لعرضه فى عام ١٩٩٥، فى مهرجان الفجر فى



طهران والفيلم يشير الجدل، فهو فى نظر الكاتب والناقد أومين روحانى قصيدة، «قصيدة فى شكل فيلم، يعكس معاناة طبقة اجتماعية خاصة، هى نفسها واقعة فى شراك لبيئة اجتماعية شديدة الخصوصية هى بيئتنا». أما الناقد الشاب أحمد طالبى فإنه يوجه إعجابه للمخرجة: «.. إن مجرد تجاسرك على أن ترفعى زاوية من الحجاب الذى يغطى حياة مثقفى جيلنا يستحق فى ذاته التحية، وفى الوقت الذى تحذر فيه السينما الإيرانية من تناول هذا الموضوع، انطلقت أنت وأمسكت بالثور من قرنيه».

وعلى هذه المدائح ترد صواعق الحمقى «ما صلتنا بهذه النخبة الإيرانية المتغربة؟ ماذا تمثل لنا هذه النماذج؟ إن هذه المخرجة لم تعد تنتمى إلى بلدها، وما كان ينبغى السماح لها بأن تصور هنا».

كم هى مبتذلة تلك «النظرات الحسية» التى يتبادلها عن بعد رجل وامرأة غير متزوجين، وكم هى بغیضة هذه الزوجة التى تبدى حبها لزوجها أمام أصدقائه، وكم هو تعس هذا الزوج الذى يدع نفسه ينبجرف لسبب واحد هو أن زوجته قد هجرته. ومن شنائع الفيلم الأخرى أن أياً من أبطاله لم يكن لديه أطفال.

غير أن رائحة الفضيحة إنما تأتى بوجه خاص من شخصية فاريبا، المرأة الكاتبة، التى أدت دورها المخرجة نفسها، فاريبا التى تخلق، وتشق طريقها المهني، وترفض أن تعيش بواسطة رجل أو من أجل رجل، فاريبا المطلقة من زوج لم يكن يكف عن أن يردد لها.. «لقد ضقت ذرعاً بأصدقائك المشقفين، الذين يتلمظون دائماً بالأشعار»، هؤلاء المثقفين الذين يصورهم الفيلم جيداً، إنهم عالميون إلا أنهم فى الآن نفسه فارسيون بأرواحهم بحكم تلك المكانة التى يشغلها الشعر لديهم.

لكن ياسمين ليست مجرد امرأة مترفة تقضى وقتها فى صنع العواطف وتحليلها وإعادة صنعها، بل هى أيضاً امرأة واقعية تقطع بلادها والكاميرا فى يدها، وامرأة ذات قلب، فبعد أن ناضلت من أجل ضحايا الهزات الأرضية انطلقت لتصوير آخر ضحايا الجذام فى إيران، فما زال من هؤلاء التعساء ثمانية آلاف، كما تقول الأرام الرسمية، كلهم تقريباً من الأكراد، ويعيشون مع أسرهم قرب تبريز ومشهد، فى مستعمرات جذام مريحة غير أن ثمة (تابو) يحيط بوجودهم صممت المخرجة على أن ترفعه.

ودق جرس الباب، ووقفت ياسمين واتجهت إلى الباب، لم يكن الزائر سوى صديقها المهندس المعماري الذي دخل مندفعاً، وصافحني باليد وتلك حركة عادية لكنها تستحق أن تذكر، لأن تحية المرأة بلمس يدها محظورة على الرجال، ثم دخل، وهو يمسح بسكويتة التطفها وهو يمر أمام المائدة:

- قولي لي ياسيديتي.. أنت يا من تقطعين أركان الجمهورية.. أفلم يقل أحد لك بالصدفة أين يقع خطهم الأحمر؟ نعم، أنت تعرفين جيداً، ذلك الخط الأحمر الشهير الذي يحدد على ما يبدو الخفايا التي لا تخص محظوراتهم، إن سلطاتنا لا تكف عن تهديدنا بالعقاب إن تجاوزناه.. غير أننا لا نعرف أين يوجد هذا الخط. وانطلقت ياسمين ضاحكة ثم قالت:

- هذا هو الشأن كذلك في السينما، فكل شيء دائماً غائم، وخط التصريح / عدم التصريح يتذبذب، ولكن فلنكن منصفين، فإن أفلاماً فرض عليها النفي سنوات طويلة، قد أطلت أخيراً اليوم.

## «في المعطف الجميل»

### (بالفرنسية في الأصل)

مثل فيلم «رجل الجليد» من إخراج داود ميربغري الذي أسرع لمشاهدته في اليوم التالي: إن هذا الفيلم الذي ظل محظوراً ثلاث سنوات يحقق نجاحاً ساحقاً في العاصمة في شهر يناير ١٩٩٨، ويتدفق الشباب البورجوازي عليه في جماعات، فلنجلس، وتطفأ الأنوار ببطء، أئمة غشاوة على عيني؟ خيل إلى أن البعض يتقاربون، بل أنهم يتلاطفون قليلاً في الصف الخلفي.

قد يكون الاختلاط مباحاً في الجامعة، وفي الأماكن العامة والشوارع والحدائق والكافيتريات، لكن هذا لا يمنع أن ابتسامة أوسع مما يجب، أو رأسين منحنيين ولو

## صورة حية من إيران

قليلاً إحداهما نحو الأخرى، أو أياد تحتك .. كلها أمور خطيرة، وأنه لعذاب شديد إذا ذكرنا أن أكثر من نصف السكان الإيرانيين تقل أعمارهم عن العشرين سنة، وأنهم ولدوا بعد ثورة عام ١٩٧٩ .

هم بعيدون إذن عن الزواج، نقطة الخلاص، ولكن كيف تقتل سحر الدلال؟ من الأيسر أن تخنق الحياة! فتحت عيني على العاصمة الضخمة، إن صالونات الكوافيرات لا ترى لأنها مختفية في الطوابق، لكن (الموضة) تنتشر في الشوارع. ولأنها مستوردة من أوروبا فإنها غالية جداً ومن ثم فإن العامة يكتفون بنسخ من المنتجات الغربية كثيراً ما تصنع في إيران. والمخلات الكبرى للمعاطف كثيرة («المعطف الجميل»، وتكتب حسب النطق الفرنسي بحروف فارسية): ملايين المعاطف على ملايين المشاجب، معاطف كثيرة للغاية، بعضها في الواقع .. جميل، بل جميل جداً، وكثير من الإيرانيات من الجمال بحيث يرتعش لهن الشارع حتى وهن مغلفات، ثم هناك ذلك الفن الذي لا يحاكي بأن يكن فارسيات، آلاف الطرق للهو بتلك الخصلة التي تتجاوز الوشاح، أو لاستخدام الظلال الفنية للمكياج. وهو كياج يقمن - مثلنا جميعاً - بإصلاحه أمام مرآة السيارات، لأنهن يستطعن القيادة، لكن الدراجة محظورة .. أما الموتوسيكل .. فإن بوسع بريجيت باردو أن تتغنى كما تشاء بسيرج جينسبورج ولكن لن يكون بوسع الإيرانيات غداً أن تركبن موتوسيكلات من ماركة «هارلى - دافيدسون»، دون أن يكن بحاجة إلى أحد، وشعورهن تتطاير في الهواء».

## (ذكور)

## الإسلام والسينما

ولكن لنعد إلى ما بعد الظهر هذا في دار السينما، إلى «رجل الجليد»، مشار الجدل. لماذا بحق الشيطان منعوا هذا الفيلم طيلة هذه المدة؟ صحيح أنه يحوى

أغاني، بل أن بحق المشاهدين يتجاسرون على أن يرددوا الإيقاع باستحياء بأيديهم، لكن المخرج اقتصر في حذر على أصوات رجال، فما من أحد يجهل في إيران أن صوت امرأة تغني يشير الشهوة.. وتمضى الأحداث دون مفاجآت حتى تظهر «توتسى» إيرانية، بقبعة نسائية، وكعب عال، وألوان مبهرجة... كل شيء هنا. أهو هذا إذن: لقد تجاسر داود مريغري على أن يعرض رجلاً متنكراً في زي امرأة، رجلاً مختزلاً إلى امرأة؛ فالواقع أن (ذكور) إيران قد أعلنوا الحرب على الغنشين، فهم في نظرهم - يهزءون بالرجولة - وعلى أى حال فإنهم ليسوا وحدهم في ذلك، فأنا أعرف آخرين كثيرين، يشبهونهم تحت سموات أخرى.

ففى «رجل الجليد» أبدع الممثل الشهير أكبر عبدى بجسده الممتلى في أن يتقمص شخصية إنسان إيراني طيب يسعى يائساً إلى الهجرة إلى ما وراء الأطلسي، وبعد أن تمكن بالغش من العبور إلى تركيا وجد هذا البائس نفسه محتجراً لشهور في استانبول حيث أجبره عجزه عن الحصول على تأشيرة دخول لأمریکا على تقبل اقتراح مجنون للغاية: أن يتنكر في مظهر امرأة حتى يتزوج أمريكياً، زواجاً أبيض لكنه غال جداً نتيجة طمع الزوج المقبل والوسطاء الأتراك.

ثم مفاجأة - وعمل رائع من مخرج يعرف إلى أى مدى يستطيع أن يمضى. فقد وقع بطلنا في غرام فتاة من مواطنيه هاجرت إلى استانبول لكنها مازالت ترتدى الحجاب على الطريقة الإيرانية، فغير اتجاهه في اللحظة الأخيرة، ويودع رجلنا الزخارف النسائية، التي هي في ذات الوقت كاريكاتيرات للغرب، ويقرر العودة إلى جنسه وإلى بلده الأصلي، وكما أوضح لى بوقار طالب هرع لمشاهدة الفيلم للمرة الرابعة، ونحن نغادر دار السينما لنبهرنا ضوء النهار:

- لقد أحب الفتاة، هذا صحيح، لكن هذا ليس كل شيء، لقد أدرك كرامته، وأدرك أنه على وشك أن يفقد هويته مرتين: أولاً رجولته ثم عزته الإيرانية.

## في أصفهان..

### التواءات العقل الفارسي

سبتمبر ١٩٩١، الوصول إلى أصفهان يعنى في البداية عبور منطقة جافة،

## صورة حية من إيران:

مساحة واسعة يغطيها الغبار، ومن هنا يأتيك هذا الشعور بالارتياح عندما تدخل إلى قلب المدينة وتبرز أمامك زرقة المساجد كأنها المياه العذبة. إن هذه المساجد اللازوردية المرصعة بالنجوم الذهبية وذات الماضي المهيّب تلقى اليوم بظلالها على الميدان الذى أعيدت تسميته منذ الثورة «ميدان الإمام». وقصر على كابو الساحر يمتد بطوله، وأعمدته الرقيقة قد شوهتها مع الأسف الصور الضخمة للرجلين اللذين لا بد وأنك تعرفهما - أعنى الإمام الخميني وعلى خامنئي المرشد الروحي الأعلى.

ويقال إنه تحت أيقونات الجمهورية الإسلامية هذه نفذت مؤخراً عمليات إعدام. أهذا حقيقى؟ هكذا همست لأحد التجار المنتشرين فى الميدان، لقد قالوا لى إن أناساً قد شنقوا منذ بضعة أسابيع.

- أوه، إنهم نكرات لا يصلحون لشيء، عدد من الأفغان كما هو الشأن دائماً، لصوص اهلسمى بالأحرى لرؤية محلى.

وعلى مسافة أبعد كان بائع البطاقات البريدية قد وضع فاترينته الدوارة أمام مسجد الشيخ لطف الله.. وهناك.. ماذا أقول؟ كان بوسع سيل النساء المنقبات أن يدفعننى فى طريقه وهو يمر فما كنت لأحس به إذ خلبت لى طيور أخرى أزهى ألواناً.. وأقل ثياباً.. نعم ففيما بين صورتين للمآذن كانت الفاترينة تعرض صوراً أباحية، ولائم مرسومة بأسلوب المنمنمات القديم.

وقال لى التاجر فى هدوء:

- حتى يعرف الناس ما ينبغى أن يتجنبوه!

وإذ أربكتنى التواءات العقل الفرسى عدت إلى التواءاتى أنا، عبر المدينة، حتى مكان موعدى التالى، حتى هذا الباب الذى يطل على أحد الشوارع الفسيحة المحاطة بالأشجار، وفتحت لى الباب يد حذرة ففى أصفهان كان يعيش، أو بالأحرى كان يوجد، إبراج متاهدة أسقف الإنجليبين فى إيران، محمياً وحيساً فى آن واحد بين جدران عالية، وسط الديكور المهجور لما كان من قبل مملكته، مع الكنيسة والمستشفى والمدرسة ومركز المكفوفين - موضع اعتزازه.

كان قد نصب عام ١٩٩٠، قبل عام من زيارتى خفية تقريباً «مامن أد من الخارج

قد سمح له بالقدوم»، والأسقف يعيش حياة متواضعة للغاية.. نحيف، يرتدى بلوفرًا وسروالًا، رجل عادي إذا نحن أغفلنا حدة نظراته - ولكن كيف تستطيع أن تغفلها؟

- لقد صادرت الثورة الإسلامية كل ممتلكاتنا إلا الكنيسة، وسمحت لي بأن أؤدي القداس، ولكن الاجتماعات محظورة خارج السقيفة. وكل شيء بين أيديهم، وعيونهم في كل مكان، وعلى في آن واحد أن أكون حذرًا ومخلصًا لسيدى، وهو وحده الذى مكننى من ذلك.

وأشار الأسقف إلى النافذة.

- انظرى إلى هذا المبنى، هناك، على بعد خطوتين في مواجهتنا، إنه مستشفى.. الذى لم يعد لنا..

وانطلقت زوجته، الإيرانية مثله، شعرها أشيب وعيناها داكنتان

- لم نعد نضع أقدامنا هناك، لكنه ليس سرًا أن المستشفى لا يلقي عناية فكل ما يمكن أن يباع قد بيع، اللهم إلا الأغذية التى لم يريدوا لمسها لأننا طرزناها بالصليب.

## نشاط

## الكنائس

تبقى الكنائس نشطة رغم ألف صعوبة وصعوبة تواجهها، بل لقد تمت عمليات تنصير، ويتحدثون عن اجتماعات مستترة، إن لم تكن سرية، وبالنسبة لى كانت هذه الأقاصيص تفوح بشيء رأيت من قبل، شيء سمعته من قبل، شيئاً يذكرنى بربورتاجى عند الجانب الآخر من حدود إيران، فى سنوات الجليد فى الاتحاد

## صورحية من إيران:

السوفييتي، مما يؤكد أن كل أيديولوجية في السلطة، أيًا كانت تلد التعصب.

ويمكن أن نقول هنا إنه حتى في إيران اليوم يحدث أن يجد بعض الشباب في طريقهم، وهم يبحثون عن إله الحب، أو وهم يبحثون داخل أنفسهم، طائفة ما، طائفة مستوردة، مثل هاري كريشنا، وغنى عن البيان أنهم يتخفون، فهذا شرط أساسى لبقائهم. وقد أسرت لى «معصومة» التى تربت تربية إسلامية، أنها وجدت سعادة هذا العالم فى الثياب الزعفرانية، والرجال حليقى الرءوس، والتمايلات التى تدير الرأس، والمزامير السرمدية.

- منذ بضعة أسابيع استأجرنا جميعنا قارباً وأبحرنا بعيداً فى بحر قزوين.. الماء.. السماء، كنا نغنى، وتجاثرنا على الغناء، وأحسست أننى حرة.. حرة!

لقد عشت «مسعودة» على طريقته الخاصة لمقاومة رداء الملالى، وثمة طرق أخرى، أشكال مختلفة، نادراً ما تكون مرئية، ومن ثم يصعب مراقبتها، لكنها مع ذلك موجودة جميعاً، وقد قيل لى مراراً وتكراراً، كالمراهقات اللاتى ضغن ذرعاً بارتداء الحجاب، يقمن فى بعض الأحياء الميسورة فى شمال العاصمة، بقص شعورهن (ألا جرسون)، وارتداء (أنوراك) موحد للجنس، ويضعن على رؤوسهن قبعة بيسبول، بل يتردد أنه يوجد (بانك) مختفون فى مكان ما، وقد صيغت خصلات من شعرهم باللون الوردى.

ولكن فلنعد إلى المسيحية، إلى أصفهان، إلى الأسقف الإنجليلى وفبيض اعترافاته.

- أن ما يشير الضيق، كما ترين، هو أننا نحن الأقليات الدينية نجتذب كالدباب أسراباً من أناس.. بماذا أصفهم؟ أناساً (مهزوزين). والرب بأمرنى بأن استقبلهم حتى إذا لم أكن أقر تجاوزاتهم، وهى تجاوزات قد يدفع المرء أحياناً حياته ثمناً لها.. خذى مثلاً هذا الشخص، البسيط الخشن للغاية، إننى أعرفه جيداً لأنه تزوج فتاة من مركز الكيفيات.

وتوقف الأسقف قليلاً إلى أن صبت زوجته الشاى من الساموفار فى فناجيل بيضاء من الصينى ثم استطرد قائلاً:

- وإثر كثير من التحولات استقر صاحبنا فى النهاية فى شمال إيران، بين أفراد

الطائفة الإنجيلية في مشهد، المدينة الإسلامية المقدسة الكبيرة. وهى طائفة إنجيلية صغيرة للغاية حيث لا تضم أكثر من بضع مئات من المؤمنين. ولا شك أنه كان أحرقاً: لقد أصبح هذا المتحول قساً لكنه مع ذلك احتفظ باسمه الإسلامى، وهو ليس له اسم: وإنما اسم الحسين شهيد الإسلام الشيعى! وأخذ يدعو إلى عقيدة المسيح بحماس، موزعاً المنشورات، ومحولاً بيته إلى كنيسة، معلناً لمن يسمع أنه إذا كان الله قد ابتلى إيران بالهزات الأرضية فإنما ليعاقب سلطاتنا.

وخفض الأسقف صوته:

- المسكين... وكما تستطيعين أن تتوقعى فقد ألقوا القبض عليه فى النهاية، ثم قيل لى إنهم عذبوه، وفى ديسمبر ١٩٩٠ أعدموه.

## المسيحيون

### واليهود والزرادشتيون

وماذا عن قصتك أنت يا أبى؟

ضم موتا هادى يديه، ثم أخذ يستعيد - ونظرتة تكذب نبرة صوته الهادئة - عام ١٩٧٩، الشهور الأولى للثورة الإسلامية، أيام الفوضى والتجاوزات الملائمة للأسف لكل الثورات، وروى كيف ألقى القبض عليه، وهو رجل الكنيسة، ثم سجن أولاً فى أصفهان ثم فى سجن إيفين السياسى فى طهران، وقد خرج منه بحمد الله لكن من بين زملائه من لم يكن له حظه.

- اندست الدهماء فى صفوف طائفتنا، ناشرة كل أنواع الضجيج، ومبالغة فى علاقاتنا بالغرب.

ووقعت هذه الشائعات فى آذان زاد من انتباهها الجو الذى كان حينئذ ملتهباً بالعداء للغرب، حتى لقد اعتبر البعض الرداء الإنجلي راية، ورمزاً للإنجلترا الدولة المحتلة السابقة.



## صور حية من إيران:

- الحمد لله أن الأمور هدأت منذ تلك السنوات السوداء، وأخذت الأقليات الدينية تتنفس الصعداء.

هل الأسقف موتاهدى متفائل؟ يبدو أن بعض الشواهد تعطيه الحق في ذلك. وما يدور في رأسى على سبيل المثال هم اليهود، من خمسة عشر إلى عشرين ألف نفس في إيران. وهم إن كانوا ممثلين في «الجلس»، البرلمان، إلا أنهم لا ينظرون إلى الحياة نظرة وردية، وقد صفا أفقهم بعض الشيء منذ توقفت المعارك بين إيران والعراق، وحتى نستطيع اليوم أن نفهم وضعهم في ذلك الحين علينا أن ننغمس للحظة في جو سنوات الحرب، ونسترجع الشعار الذى أطلقه الإمام الخميني للاستخدام الداخلى: «هيا إلى القدس!»، دعوة للسلاح توحى بوضوح بأن العراق لم يكن في الواقع سوى مرحلة في طريق طويل إلى ما كان - ولعله مازال - الهدف الأخير للحرب المقدسة: تحرير القدس، ثالث الحرمين، والقدس تحتلها إسرائيل.. أى اليهود.

- الهدف الأخير للحرب المقدسة: تحرير القدس، ثالث الحرمين، والقدس تحتلها إسرائيل.. أى اليهود.

ويبدو أن السلطات الإيرانية قد نست في اللحظة الحالية الطريق إلى القدس ومن ثم قد سمح لليهود شيئاً فشيئاً بأن يسلكوا طرق العالم.

ويبقى أنه منذ قيام الثورة كانت كل أقلية دينية، سواء كانت مسيحية أو يهودية أو زرداشتية - وهى ديانة فارس القديمة التى ترجع إلى نحو ثلاثة آلاف عام - تتمتع بحقوق أقل في إيران، فإذا وقعت حادثة سيارة مثلاً فإن التعويض الذى يدفعه المذنب لأسرة غير المسلم الذى أصيب أو قتل في الحادث أقل كثيراً. وبوضوح فإن المسلم المصاب يساوى أكثر كثيراً من يهودى أو مسيحي أو زرداشتي في نفس الحالة، أما المصابة غير المسلمة فهى بلا شك أقل الضحايا تكلفة، فالمرأة لا تساوى أصلاً في نظر القانون سوى نصف رجل.

والويل لغير المسلم الذى يضبط مع مسلمة! ولنشر إلى رجل الأعمال الألمانى الذى قبض عليه مؤخراً في عام ١٩٩٨: فقد اتهم بأنه أقام علاقة جنسية مع إيرانية مسلمة، ويتعرض التعس للإعدام، لا أكثر ولا أقل.

## فلترحل

وماذا عن البهائيين.. إنهم أكثر الطوائف مسالمة، ورغم ذلك تتهمهم السلطات بالعداء للإسلام؟ ماذا أصبح هؤلاء البهائيون الذين اضطهدوا بشدة مع بداية الثورة؟ رد الأسقف على هذا السؤال بحكاية:

- منذ فترة كان لابنى زميل فى الجيش، شاب يدين بالبهائية. حسناً إن رؤساءه يحترمونه، ولم يجبروه أبداً على أداء الصلوات الإسلامية. لقد عانى البهائيون معاناة رهيبة، لكنى لا أعتقد أننى سمعت عن إعدامات منذ فترة طويلة وقد أطلق سراح بعض البهائيين بعد أن سجنوا طويلاً.

ابتسامة غامضة، ثم فى سخرية مستترة.

- وبالطبع فإن ما أقوله لك هو الشائعات التى تصل إلى من الخارج، لأننى لا أكاد أخرج.

وعند حديثنا فى عام ١٩٩١ لم يكن لدى الأسقف الإنجيلي سوى حلم وحيد: أن يشم الهواء، أن يسافر فى النهاية خارج إيران، وهو حلم معلق على الحصول على جواز سفر طلبه منذ عامين دون نجاح، عامان من الرسائل والمذكرات والانتظارات التى لا تنتهى والتوسلات.

وقد سُمح لزوجته بأن تتوجه إلى إنجلترا، لحضور زواج ابنتهما. أما هو فلم يصرح له. ومن ثم فقد بقى.. وحيداً مع عدد من المؤمنين بعد أن توزع الباقون فى البلاد، وحيداً مع كنيسة بزجاجها الملون الذى هشمته الغارات العراقية، وحيداً مع صور أسرته المبعثرة، وصورة كنيسة مونغارتر فوق الأريكة، وحيداً مع حديقته المهملة.

لكن معه إيمانه.

## أن تكون أرمينيا في جمهورية إسلامية

تطلب الأمر وقتاً حتى ينتهي الاتحاد السوفيتي بالتحلل، وحتى تكون لنا في النهاية أرمينيا، جمهورية مستقلة عاصمتها إريفان. أما اليهود فلديهم إسرائيل منذ وقت طويل... والمشكلة أنه ليست لدينا أمريكا، ليست لدينا أم رؤوم تساندنا... إذا كنت تعرفين أحداً يهمه الاستثمار...

انطلقت هذه الملحة من خلف لحية سوداء، لحية أخرى في طهران، لكنها أرمينية هذه المرة، وهذا هو الفارق. والأب أرتاك مانوكيان هو مالكها الموقر، لحية أسقف مثقلة بالسلطة، كما هو مثقل هذا (الديكور) الذي يوجد في عرشه: مكتب واسع، بجدران مليئة، تشرف عليها على الدوام صورة نسر، الطائر الذي يرمز للحرية الأرمينية.

وصور في كل مكان، أكثرها إثارة للدهشة؟ مانوكيان يجلس متربعا إلى جوار الخمسيني. كان هذا في عام ١٩٧٩، في الأيام الأولى للثورة، الأسقف والإمام: رداء، زيان تاريخيان، وكأرميني فطن لم يفت مانوكيان أن يستخرج مئات النماذج من هذه الصورة ليقدمها لزواره.

وهذا أيضاً صليبان أرمينيان صغيران، واحد لك يا سيدتي، والثاني للمغني شارلز أرنافور إذا رأيته، فقد قيل لي إنه يعيش لديكم في سويسرا.

كان ذلك في عام ١٩٥٩ حين هبط أرتاك مانوكيان، قادماً من لبنان، إلى الكوكب الإيراني للمرة الأولى. وقد نصب صغيراً جداً، في الخامسة والعشرين وهو اليوم يحكم بلا شريك الأبرشيات الأرمينية الثلاث في البلاد. وكل هذا العالم الصغير، على شاكلة كنيسة إريفان في أرمينيا، يتبع بطريق لبنان.

ومازال هناك مائتا ألف أرميني يعيشون في إيران، نصفهم في طهران، وطيلة ربع القرن الأخير مرت عدة مواجهات بالدياسبورا الأرمينية في إيران... أولاً في عام ١٩٧٢ حين انتهزت عدة أسر انفراجة في العلاقات بين الشاه والاتحاد السوفيتي

فاختارت أن تعبر الحدود لتعود إلى مهد تاريخها. وبعد عدة سنوات هرب الأرمنيون الأكثر غنى من إيران التي تحولت إلى جمهورية إسلامية. ومنذ ذلك الحين لم يتوقف الخروج أبداً.

## « ليس وضعنا بهذا السوء »

وتمتم الأسقف :

- وأنى لأتساءل لماذا... فليس وضعنا على أى حال بهذا السوء فى إيران، ليحرسنا الله، لكننى لا أعتقد أننا نتعرض هنا أبداً للأهوال التى فرضها الأذير على إخوتنا فى أذربيجان.

وهذا صحيح، يزيد من صحته أن الأرمن فى الجمهورية الإسلامية يتمتعون بامتيازات بالنسبة للأليات الأخرى، فهم يتابعون بهدوء أعمالهم، التى كثيراً ما تكون مجزية، بل مازالوا يشغلون مراكز قيادية فى الجيش، وصرح لهم بإنتاج الكحول واستهلاكه فلم يتوانوا، فضلاً عن قيامهم ببيعه سراً، وبالنسبة للكحول يعرف الجميع أن طهران شبيهة بعض الشيء بشيكاغو فى الثلاثينيات، ربما كما هناك حظر، لكن هذا لا يمنع أن البعض يقومون بالتقطير فى بعض الكهوف... وليس جمعياً من الأرمن.

وإذا كانت السلطات قد صادرت بعض الممتلكات الخاصة، إلا أنها مع هذا لم تستول على ممتلكات الكنيسة الأرمنية. والدليل هو الأسقفية التى مازالت واقفة دون مساس، واحة للسلام والسكون فى جلبة قلب العاصمة.

وهذه الأحجار القديمة فى الصور القديمة الصفراء فوق الحائط ؟

- إنها كنائسنا، كنائسنا الأرمنية العتيقة جداً، والتى تعتبرها سلطاتنا من كنوز التراث الوطنى الإيرانى : ومازالت ترميماتها التى بدأت فى زمن الشاه مستمرة حتى اليوم. كلا ليس الأمر كما هو فى تركيا، حيث تركت للإهمال !

وكل هذا جميل، لكن هناك أيضاً ظلالاً، كما في الجامعة، فهي قبل أن تقبل طالباً تستعلم عن أسرته، التي ينبغي أن تكون أسرة مسلمة مشالية ممارسة «لا يشوبها شيء». وإذا كان اسمك جوزيف - مثل ابن إحدى صديقاتي المسيحيات - فإن هذا يمثل عائقاً كان من الصعب التغلب عليه إلا بفضل أحد المعارف من كبار الشخصيات، ومن الصعب كذلك - إن لم يكن من المستحيل - حين ننتمي إلى إحدى الأقليات الدينية أن تختار مهنة «تتلاءم مع الواس»، كأن تكون معلماً مثلاً، حتى معلماً متواضعاً للغاية، خلف درج متواضع، في قرية متواضعة.

وفي هذه اللوحة، غير البهيجة دائماً، كان الأرمن مرة أخرى محظوظين، فعلى عكس الأقليات الأخرى لم تغلق مدارسهم، وإن لم يمنع هذا الأسقف من أن يصبر على أسنانه، أفلم تفرض الحكومة مديريين مسلمين على المدارس الأرمنية التي تبلغ نحو الأربعين؟ كما أن الدروس تقدم بالفارسية باستثناء ساعتين بئستين تدرس فيهما اللغة الأرمنية أسبوعياً.

كان مانوكيان يتحدث بالفرنسية اللبنانية الطروبة، ويضغط الرءاء في حلق شديد.

- وما نحن في عام ١٩٩١... انقضت عشر سنوات لا قوم فيها بتدريس الديانة في مدارسنا، لقد وعدونا على الدوام بمزيد من الحرية، لكنني لا أرى أبداً جديداً قادماً.

ويواصل الأرمن أنشطتهم الثقافية، وإن كانت عين الأخ الأكبر ماثلة دائماً تراقب كل شيء، كما يفترض أنها تراقب كل نص يذهب إلى المطبعة، أي كان، ومن أينما جاء، فحتى بطاقات الزيارة تخضع لهذه القاعدة.. وإن كان يضاف إلى هذا في الممارسة بالنسبة للأرمن أن الأخ الأكبر لا يقرأ إلا الفارسية، ومن ثم فإن كل ما يبذل بلغتهم ينبغي أن يترجم.

- الكتب والمسرحيات والقصائد... حتى بطاقات الدعوة البسيطة التي نرسلها إلى أبناء طائفتنا - والتي ينبغي أن يوضع عليها تقويمان، تقويمنا وتقويمهم، التقويم الأرمني والتقويم الفارسي.

## إخوة إيران

### وأرمينيا

عند وقوع الهزة الأرضية في أرمينيا عام ١٩٨٩، هب أرمن إيران سراعاً إلى لمجة إخرتهم .

ويسارع الأسقف ليقول :

- بمباركة سلطانتا .

لقد أدت الكارثة إلى زيادة تقارب الطائفتين اللتين فصلت بينهما طويلاً الحدود المصطنعة، ثم هناك الرياضة ! فهناك زيارات منتظمة بين إريفان وطهران . لكن هذا التبادل « العصلي » لا يكفي لارتياح الأب مانوكيان الذي يحلم بوجه خاص، كأرمني حتى أخص قدميه، بالتبادل التجاري .

والحقيقة الحققة هي أن التيار يسير بالفعل منذ أمد طويل، فحين يكون الناس من أبناء الشعب نفسه، يتحدثون اللغة نفسها، ويتقاسمون الذكريات الأليمة نفسها . . وتكون التجارة غريزة في دمهم، لا تكون الحدود مصمتة، وأسّر لي أحد سائقي الأجرة « ليست هناك حاجة إلى جواز سفر، ثم أنني أجد هناك كل ما احتاجه، وكثيراً من قطع الغيار الرخيصة لسيارتي » . وحين يتوجه رجلنا للتسوق في أرمينيا يمر بمدينة جولفا، مدينة الحدود التي تقع تخومها في كلا البلدين .

## كل شيء

### عارض

تحت شمس نهاية الخريف الشاحبة، منزل أنيق في شمال طهران مختف خلف جدرانها . « إن زهرة في الخريف هي أكثر من مجرد تحفة أخرى »، شأن أشجار الورد

هذه التي تذيب عطرها الأخير في كل أركان الحديقة، وعلى المائدة المنصوبة في ظلال الكرم وضعت يد طبقاً مليئاً كالعادة بأزهار الياسمين التي قطفت منذ بضعة دقائق فقط.

الرقعة... فارس الخالدة.. فارس المنسية، التي أخفاها ليل الشادور، وكأنا قرأت مضيفتي، الأرمنية، أفكاري:

«أعرف.. أعرف.. فهذا الإطار ليس إطاراً بائساً.. إن أقسى شيء هنا هو الشعور بالعزلة.

ثم بصوت واهن:

«وكذلك إن كل شيء عارض للغاية، عارض بالنسبة للجميع، فكل شيء أياً كان يمكن أن يتحول في لحظة إلى كابوس، وفي قلب الهناء منغصات لا تنتهي، فهناك تكتلات ليس بوسعك أن تحصيها، وكل منها يبيع لنفسه سن القانون. ومنذ بضعة أسابيع فحسب كان بعض الأصدقاء الأرمن يقيمون سهرة حين داهمهم عدد من الشباب، بلا زى رسمي، ولا شارة مميزة، ولا إذن كما يتطلب القانون، وإنما مسلحون يزعمون أنهم حراس الفضيحة، وفتشوا، ووجدوا قليلاً من الكحول، وراقبوا الأوراق، وبالفضيحة! إن النساء عاريات الرؤوس، والأنكى من ذلك أن الرجال والنساء الذين يجلسون متجاورين على الأرائك ليسوا أزواجاً، وكوموهم بقسوة في حافلة صغيرة، بعد فصل الرجال عن النساء، كل في جانب، واقتيد المدعوون إلى «الكوميته»، وألقوا في الزنازين حيث بقوا أربعاً وعشرين ساعة.

## ذراع الله

كان هذا في عام ١٩٩١، ولكن حتى في عام ١٩٩٨ لم تنته بعد عمليات (الكوماندوز) هذه، صحيح أنها أقل توتراً، ويبدو أنها أصبحت قصصاً معتادة، فأصدقائي الإيرانيون الذين لم يكونوا هم أنفسهم ضحايا كان من بين أقاربهم

جميعاً واحداً أو آخر «مر من هنا». وهكذا نجد في الآونة الأخيرة تلك السهرة المختلطة لنحو عشرين من الشباب التي قطعت فجأة، واقتيدوا جميعاً، إلى قسم الشرطة، حيث ظلوا طيلة الليل واقفين دون أن يستندوا إلى الحائط، التقاط أنفاسهم، وفضلاً عن ذلك تلقى كل واحد وواحدة منهم عشرين ضربة أسفل ظهره بأحد خراطيم الرش.

أهذا رمز؟ أهو من أجل تخفيف الألم؟ فالواقع أن العرف الإسلامي يقضى بأن من يكلف بضرب المذنب، يفعل ذلك واضعاً طيلة العملية مصحفاً تحت ذراعه، ولكن يبدو أن أحداً لم ير هذا العرف مطبقاً أبداً.

وينصح أولئك الذين لم تنجح هذه البلية في إفقادهم حاسة الفكاهة، في حالة العقاب الجماعي، بأن «تقف قدر الإمكان في نهاية الصف» فحينئذ «ستكون ذراع القصاص قد أنهكت حين يأتي دورك».

وتسخر مضيفتي قائلة:

- والاستدارات النسائية بدورها مفيدة، فالألم يقل حين يكون الحشو كبيراً، وعلى أية حال بضعة كيلوات أكثر أو أقل تحت المعطف الإسلامي...

فهذا الزى الإلزامي أشد قسوة بالنسبة لنا، وهي الأرمنية، وتسرى لي قائلة:

- لكن الأكثر سوءاً هو صورة إيران التي أجراها معي، رغماً عني، حين أسافر... فحين أخرج جواز سفرى الإيراني من حقيبتي تموت الابتسامات، وهذا شيء مؤلم، مؤلم جداً، مؤلم للغاية، ولولا أحفادى الذين يعيشون في أمريكا لما انتقلت أبداً من هنا، ولظلمت في حى جدرانى.

## ذكريات واحد

### ممن نجوا



## صور حية من إيران

التهيب : هذا الناجي من الحرب ضد العراق ، هذا المشوه الذى يرقد فى مكان ما من العاصمة ، كيف هو ؟ وكيف سيسلك معى أنا الذى أقابله سراً ؟  
- صادقاً ، سيكون صادقاً ، هكذا أكد لى جاره القريب وهو صديق مشترك ، أن مهدي على استعداد للقائك ، وستريه عندي .

وفى الحارة تتشابك منازل بيضاء ضيقة بشرفات تخضر بزهور الغار فى الأصص والعنب فى العرائش . وهنا يعيش مهدي أشتياني ، الذى تطوع للجهاد فى سن الثامنة عشرة ، والذى يحظى اليوم بلقب « الجانباذ » ، الذى يخاطر بحياته ، البطل الذى يلاقى الموت دون وجل . وقد أسر مهدي بعد أن أصيب إصابة بالغة ، وظل محتجزاً طيلة عامين فى معسكر فى شمال العراق .

وإذا استبعدنا السجادة الكبيرة المفروشة على الأرض ، والمساند المرصوة أمام الحائط ، فقد كانت الغرفة التى جلسنا فيها عارية تماماً . وبعد أن جاهد مهدي طويلاً لكي يتمكن من الجلوس على الأرض رفع سرواله حتى منتصف فخذه ، وخلع ساقه الاصطناعية ووضعها إلى جواره :

- أوف !

وما من شيء من الأسى فى نبرته ، لقد ضحى بساقه فى سبيل الله ولا يندم على شيء . أو هذا على الأقل ما يقوله ولا يكف عن ترديده . على عكس المحاربين القدماء الآخرين الذين عاشوا الحرب مثله فى شبابهم ، ويبدون اليوم معتلى المزاج تسيطر عليهم روح عدمية .

ماذا لو طلب إليه اليوم البدء ثانية ، على هذا يرد مهدي قائلاً :

- أن تشعر بأنك قريب من الله ، وأن تموت فى سبيله .. هذا شيء أعجز عن وصفه ... أما أولئك الذين يقولون العكس فسيعاقبهم الله ذات يوم ، وأرجو ألا أضايقك يا سيدتى حين أقول إنك لا تستطيعين أن تفهمي هذا الشيء الذى يفوق الوصف .

## صبيّة بلا شعر

## فى لحاهم

واليوم يبلغ مهدي الثانية والثلاثين من عمره، ويعمل محاسباً فى وزارة النفط، ويحصل على معاش من الجيش، لكنه لم يتزوج بعد، لا لأنه قبيح، فهو جميل، ولا لأنه جاف، فهو حلو المعشر، دون أن يقلل هذا من عناد العقيدة. وانحنى فوق المولود الأخير لجاره، الموضوع بعناية على السجادة، وأخذه بين ذراعيه وبدأ يهدده.

- أتزوج، أود كثيراً، ولكن بسبب هذا كله فقد فاتنى القطار.

لم يكن أبواه، وأمه خاصة، يريدان له أن يتطوع.

- ولكن ماذا يمكن أن يقولوا؟ لقد توجهت للحرب فى سبيل الإسلام! وليس أمام والدتى إلا أن توارى حزنها.

ويخرج مهدي من صندوق كرتونى حلتته القديمة كأسير، التى احتفظ بها بعناية، سرّوَال «لكل الفصول وأحياناً للسنّة بأسرها»، بمثابة (بيجامة) وقميصاً طويلاً من القطن المضلع، ثم أخذنا نقلب معاً ألبوم الحرب الذى يحتفظ به، صور صفراء وسط ديكور من الرمل والحصى، ديكور متشابه دائماً.

- كان الحر هناك رهيباً.

صور مجموعة أمام خلفية من الصحراء، ومنذ ذلك الحين لحق أغلبهم بالفردوس الإلهى وهم لم يكادوا يغادرون طفولتهم... وفى الصورة يمكن أن تراهم يضحكون، ويقطبون وجوههم، ويتدافعون: صبيّة صغار يلهون، وإلى جوارهم مدفع «دوشكا»، التى تغنى بالروسية الروح الصغيرة، وهو اسم ملائم تماماً...

- انظرى إلى هذا، على يمين الصورة، إنه شهيد، وهذا أيضاً، وهذا أيضاً، وهذا وهذا... نعم، لقد كانوا صغاراً، صغاراً للغاية، لا شعرة فى لحاهم، وصدورهم ملساء كقطعة صابون.

## زاد الرحلة

ذات صباح في عام ١٩٨٣ التقى مهدي وزملاؤه في الميدان، كانت الحافلات في انتظارهم، مزينة بالشعارات، ومستعدة للرحيل، صور تشير الاضطراب كصورة على العظيم بالحجم الطبيعي تحديق فيك من خلف الألواح الزجاجية الخلفية: حيث يبدو كأنه حي.

وتلقى المتطوعون للجهاد الذين تتراوح أعمارهم بين الثالثة عشرة والسادسة عشرة زاداً يتألف من: شارة عليها صورة الخميني، وبطاقة بريدية تحوي نفس الصورة، وثلاثة أنواع من ورق الخطابات على كل منها صورة مختلفة: الأولى عسكرية (جنود يغوصون حتى ركبهم في مستنقعات جنوب البلاد، يلوحون ببسالة براية الإسلام)؛ والثانية شاعرية (أطر من الفراشات والزهور تحيط بالورقة كلها)، والثالثة طفولية (حمامة زاجلة متعددة الألوان تحلق فوق ساعي بريد مبهتج، يرتدي (كاسكيت)، ويقود دراجة حمراء)، كما تحوي (الزوادة) كذلك مثلثاً أزرق من القطن، والأسطوانة التقليدية المصنوعة من الآجر والمنقوش عليها صورة مكان مقدس، والتي ينبغي لكل مسلم شيعي أن يسجد عليها بوجهته عندما يصلي.

## شاركت في

## الهجوم الكبير

- كنا نحمل أيضاً عصابات تحيط بجباهنا، قطعاً من القماش الأحمر أو الأخضر أو الأزرق، رسمت عليها كلمات، كلمات تنطق بعقيدتنا، وفيما بعد، وفي ميدان القتال، ربطنا عصاباتنا حول خوذتنا.

وجر مهدي بمعونة ثلاثة من رفاقه مدفعاً رشاشاً... وسار.. سارت تحت

الشمس .. وغاص في الرمال، وتعثر في الأحجار...

- بل لقد شاركت في الهجوم الكبير، ذلك الذي سمي «خيبر» تيمناً بالوقعة الكبيرة في أيام الرسول، وقد استغرق استعدادنا ثلاثة أيام، ثم شنت قواتنا الهجوم. وكنت قريباً للغاية من الحدود العراقية، في بقعة تسمى مجنون.

وحين أمره رؤسائه أن يعبر ليلاً خطوط الأعداء المغطاة بالألغام داس مهدي على أحد هذه الألغام.

- انفجر كل شيء وأنا معه! الرد. قصفنا العراقيون، واخترقت صواريخهم المضيفة الظلمة فترة مكنتني من رؤية قدمي المتتورة وقد تدلت ملطخة بالدماء. وصنع مهدي بشكل أو بآخر، ضمادة بكوفيته التقليدية ثم أخذ يزحف.

- زحفت تحت القنابل طيلة الليل محاولاً الوصول إلى خطوطنا، لكن الله أطلع الفجر مرة أخرى، واتسع الضياء، ومعه زاد خطر اكتشاف العراقيين لي. وعندئذ بحثت عن حفرة أدفن نفسي فيها، وكنت آمل أن أظل كامناً فيها حتى الليلة التالية.

لكنه كان أملاً زائفاً، فقد سمع مهدي في مخبئه خطي تقترب منه، وصرت الرمال، ودار حديث بالعربية فوق رأسه، وانطوى على نفسه، وتضاغر، ولم يعد يتحرك، أو يتنفس، ولكن عبثاً.

## أسير

- لم يكن هولاء أي أشخاص، بل ضباطاً كما يتضح من الشارات على أكتافهم، ووجه أحدهم ضربة لي بقدمه لكي يرى ماذا إذا كنت ميتاً حقاً... آي، بحذائه الثقيل، لا أستطيع أن أصف لك مدى الألم! لكنني لم أتحرك، وعندئذ أمسك آخر بمدفعه الرشاش...

## صور حية من إيران:

وفى الوقت الذى كان فيه مهدي يقلد المشهد أمامي، اتخذ وجهه هيئة حكيم فى مواجهة حمقى.

- ولكن ماذا كان يعتقد هؤلاء العراقيون؟ أن أشعر بالخوف؟ ألا يعرفون أن الشيعى الحقيقى يحمل الموت دائماً فى روحه؟

على أن مهدي مع صوت الزناد قد هب مذعوراً، وانفتحت عيناه رغماً عنه.

- كنت هناك متكوراً وسط الرماد، ومدفعهم مصوب نحوى.. وتمتعت بضع كلمات بالفارسية، ولا أعرف إذا كانوا قد فهمونى، لكننى كنت هادئاً، وكان بوسعهم أن يروا ذلك، ثم أخذت أتلو صلاتنا الشيعية: كانت هذه هى النهاية بالنسبة لى، كنت واثقاً من هذا، ومن أننى فى طريقى إلى الفردوس الذى ينتظرنى.

أكان هذا شفقة أم لا مبالاة؟ لقد استدار الضباط فجأة ومضوا فى طريقهم. ومن حسن الحظ أن مجموعة من العراقيين بدون شارات على أكتافهم قد اكتشفوا الجريح فيما بعد.

- كانوا لطافاً هؤلاء الجنود، فأخرجونى من الحفرة، وأعطونى ماء، بل دسوا بسكويتة فى فمى، وصنعوا من أحد الأغذية نقالة وصحبونى معهم.

ووجد مهدي عندئذ أسرى إيرانيين آخرين مكومين معه فى (الكاميون). وبعد أن سار الموكب عدة كيلو مترات توقف.

- وهنا فى هذا الخيم العسكرى بدأ بعض الأشخاص فى التحقيق مع من كانوا أصحاب بيانا، وعذبوهم بالكهرباء لكى يدفعوهم إلى الكلام. لا فى مبنى ثكنة وإنما فى مقطورة مغطاة، وأوصلت الأجهزة ببطارية إحدى سيارات الجيش.

ونظر مهدي حوله فى ذهول.

- لو أنكم رأيتم أسلحتهم! لقد كنا - بالنسبة لهم - فئراناً.

.... وصمت طويل.

## هل أنت

### هركيول بواريه؟ لقد تعب

وهكذا كنت أسيراً لديهم، فماذا حدث؟  
وبدا الإجهاد على مهدى فجأة، لكنه لم يفد أدبه مع زائرتيه، ولكي يعبر عن ضيقه بإصرارها اختار الفكاهة.. وأجاثا كريستي:  
- لكنك تجربين تحقيقاً حقيقياً يا سيدتي؟ أكونين بالصدفة هركيول بواريه في زى امرأة.

وانطلقنا ضاحكين معاً، والضحك يهدئ الروح، ثم عاد مهدى يقول:  
- كانت الرحلة إلى البصرة بشعة: أعيننا معصوبة، نجر من كاميون إلى كاميون، دون طعام، ودون علاج.. أما عن سيقانا فقد كان الجنود يتسللون برينا بالخرطوم كما يروى المرء حديقته، وكان يضحكهم أن يرونا ممددين على الأرض، وأيدينا مقيدة خلف ظهورنا، وأفواهنا مفتوحة كالسمك خارج الماء، نحاول بئسين أن نلتقط بعض النقاط.

وفي النهاية! وصل الأسرى الإيرانيون المصابون أخيراً إلى مستشفى البصرة، في أقصى جنوب العراق.

- وهناك.. الحرارة والرطوبة.. مستشفى مراوحها سوداء من البعوض وشلل مهملاتها طافحة، ولا أسرة لنا نحن الجرحى الإيرانيون، وإنما أغطية مفروشة على الأرض وملبسة بالبراغيث. ومنذ وصولنا جاء ضابط يتحدث بالفارسية لاستجوابنا، وأخذ في مضايقتنا، وفي النهاية صحت فيه أنني ضقت ذرعاً بأسئلته وتهديداته، لأنني على أي حال على استعداد للموت: «إن الموت في سبيل الله شرف يا سيدي»! وعندئذ طاش صوابه إلى حد أنه أخذ في سحق قدمي المصابة بحدائه العسكري.

## عدو، صديق

وأخذت حالة مهدي تزداد سوءاً، والتهبت قدمه، وبدأت الفرغرينا عملها... وبعد أن استخرج الطبيب العراقي المستول قطع الحديد المغروسة في اللحم قرر بترها.

- وفي ذلك اليوم رأيت للمرة الأولى هذا الجندي - الممرض العراقي الشاب واتجهت نحوى نظرتة الحنونة، كان هو أيضاً شيعياً. وفي كل ليلة كان عدد من الجنود يقتحمون باب المستشفى صارخين، ثم يبدءون في ضربنا بالأسلاك، وإذا كنت قد استطعت أن أتحمّل ثلاثة أسابيع في هذا الجحيم فالفضل في ذلك لهذا الممرض الشيعي الذي لم يكف عن علاجي كأخ، وقد ردها لي مراراً: «مهدي أنت أخي، وأنا أشعر أنك أقرب لي من رجالنا. إن عقيدتنا واحدة، وليست هناك سوى راية واحدة، راية الإسلام الشيعي»... لقد كان مؤمناً حقيقياً، يؤدي صلواته كل يوم.

وكان الافتراق عن هذا العدو - الصديق مؤلماً لمهدي.

- حين شحنا نحو عشرين منا في حافلة متجهة إلى شمال العراق بكينا نحن الاثنين أنا وهو، لكم أود أن أراه ثانية بعد الحرب.

وإذن فلماذا لا ترسل له خطاباً؟ ثق فيّ يا مهدي وسأسلمه بنفسى إلى اللجنة الدولية للصليب الأحمر في جنيف التي ستقوم بإيصاله له في العراق.

وعندما استمع إلى اقتراحى اكتسى وجهه الذى كان مفتوحاً للغاية منذ لحظة بانقباضة:

- أبداً... إننى أخشى على صديقى، ولن أبوح باسمه أبداً، فالشيطان صدام حسين مازال في السلطة هناك، وهناك كثير من الجواسيس بين من يعملون في الصليب الأحمر.

## المعسكر

ولكن فنلعد إلى قصتنا ، إلى مهدي بعد أن غادر البصرة مع رفاقه الأسرى متجهاً إلى شمال العراق ، وفي هذه المرة نقلوا في حافلة ولكن عيونهم ظلت معصوبة ، وبقي الجوع والعطش والمعاناة .  
- كان بيننا جرحى بالغوا الإصابة .

وقضى الإيرانيون بعد ذلك ثمانية وأربعين ساعة في أحد سجون بغداد .

- ولم يدعونا حتى نصلى .. أنتصوين ذلك !

ثم رحيل آخر تحت شمس حامية ، إلى الموصل ، على بعد مئات الكيلو مترات شمال العاصمة ، وهي مدينة باردة كالثلج لأنها مقامة في الجبل .

- ولما كانت العصابات تعمى أبصارنا فإننا لم ندرك إلى أين اقتادونا إلا بعد أن وصلنا إلى معسكراتنا على بعد نحو عشرين كيلو متراً عن الموصل . كانت هناك أربعة معسكرات ، مؤلفة جميعاً من مكعبات كبيرة من الخرسانة المسلحة . وكنت في الخيم رقم ١ .

وقبيل الوصول إلى الموصل كانت القافلة قد توقفت في إحدى القرى . واقترب بعض الفضوليين من الحافلة وعندما رأوا هؤلاء الركاب البؤساء أخذوا يقدمون لهم الماء والحلوى ، بل رأى مهدي الذي كان قد تجاسر على رفع العصاة لحظة صبيياً بعث له قبلة على أطراف أصابعه من الناحية الأخرى من الزجاج . وعلى العكس كان السكان في مدينة الموصل عدائيين ، حتى لقد اضطرت الشرطة إلى التدخل .

ولم يكن العسكريون العراقيون الذين يحرسون الخيمات أكثر ودّاً .

- عند وصولنا تعرض الأسرى القدامى الذين حاولوا الاقتراب منا للضرب ، وبعد أن تأكد العراقيون من وضع عصاباتنا مروا بنا من أبواب وأبواب ، تيه حقيقى ، ولم نعد نفهم شيئاً .



## صور حية من إيران

أمي..

ماذا يهم

والشهور تمضي.. ومهدى في شراك عزلة المعسكر العارى يشعر بالحزن الشديد، حزين لكنه لم يشعر باليأس أبداً، لأن كل هذه المعاناة كانت في سبيل الله، إنه يتعذب في سبيل الله.

- ركب العراقيون في أركان المعسكر الأربعة مكبرات صوت تصرخ يوماً بعد يوم بدعاية معادية للخميني. ولانتقاد الإمام راح هؤلاء الحمقى يسمعوننا صوته، لكن هذا على العكس كان يشير حماسنا.

وأطلق سراح مهدى، باعتباره معوقاً، بعد عامين، فعاد إلى أمه في طهران، أمه التي أرهقتها الدموع والانتظار، والتي لقيت نحبها بعد يومين، بعد أن قبلت ابنها بالكاد.

الابن الذى علق على ذلك بهذه الكلمات الفظيعة، التى أشك فى أنها قد ترضى الله حقاً:

- أعرف أن أمي قد ماتت بسببي، ولكن ماذا يهم!

ثم أضاف محدداً:

- ماذا يهم لأن الله يستقبل فى فردوسه أمهات المجاهدين بدورهن.

عيد ميلاد

لا يشبه غيره

## صور حية من إيران

اصطفوا على أرائك .. إحدى الكنائس . في قلب الحرب ، في قلب طهران .  
ففي الصباح الباكر ذلك اليوم أيقظني صوت موظف في وزارة الإرشاد الإسلامي  
مذعورة في غرفة فندقى :

- ألو يا سيدتى ؟ هل تودين أن تحضرى القديس ؟  
ولماذا ؟ وأنا بروتستانتية .  
- تعالى ، وأعدك أنه لن يكون قداساً كغيره .

### بابا الشيعة

### وبابا الكاثوليك

يوم الجمعة ٢٦ ديسمبر ١٩٨٥ ، شارع فورسات في قلب العاصمة ، وكأنى  
هبطت من كوكب آخر ، ومحاطة بالشرطة الإيرانية في هندام كامل وأسرى حرب  
عراقيون ينزلون واحداً واحداً من حافلة متوقفة أمام كاتدرائية سانت ماري ، إحدى  
المراكز الرئيسية للكنيسة الكلدانية الكاثوليكية في إيران . يضعون على رؤوسهم  
طواقى منسوجة من صوف بنى ، وبعضهم يرتدى السواد ، وبعضهم يرتدى الكاكي  
- البنى ، وكلهم ينتمون إلى الطائفة المسيحية في العراق - عشرة في المائة من  
السكان غالبيتهم من الكلدانيين الكاثوليك بالتحديد .

وأغلقت الشرطة مدخل فناء الكنيسة أمام المارة ، وأخذ هؤلاء ينظرون إلى  
المشهد من الشارع ، صامتون ، ووجوههم جادة ، ثم فجأة أطلق واحد منهم عبارة  
« عيد ميلاد سعيد » فى استحياء . ألهله أحد الإيرانيين المسيحيين ؟

كانت لفترة كريمة من الحكومة الإيرانية أن تخرج الأسرى العراقيين المسيحيين  
لحضور قداس ، من المعسكرات المحيطة بطهران ، حيث يتعفن الكثيرون منذ نحو  
خمس سنوات . ولفتة سياسية بالمثل . فليحفظ الله الخمينى ، بابا الشيعة ، من  
الخلاف مع يوحنا بولس الثانى بابا الكاثوليك ولا شك أن الانفراج سيكون أوفق

لو أن السلطات الإيرانية تقيم قداساً هناك كل سنة للأسرى العراقيين المسيحيين فقد كانت هذه هي المرة الأولى التي ترد فيها روما على دعوة طهران وترسل شخصية رفيعة: الكاردينال ايتشجاراي المسئول بوزارة العدل والسلام في الفاتيكان.

## إلى الخلف

### يا امرأة

أنت يا يسوع الطيب؟ إن هذه الكنيسة تفوح بالشك، وممراتها تمتلئ بالحراس. والأمن الإيراني مدجج بالسلاح. هذا الكاردينال الموقر! وهذا الحشد من الرجال المتراصين وكلهم من أعداء إيران!

أما أنا «التي يمكن أن أزعج هؤلاء التعساء الذين لم يروا امرأة منذ سنوات» فقد أبعدونني إلى الرواق ماذا تظنين؟ أسيفرض هؤلاء قواعدهم حتى داخل الكنائس؟ الرجال في ناحية والنساء في الناحية الأخرى؟ هكذا كنت أفكر وأنا محصورة بين الكورس والأرغن، جالسة على ارتفاع الشريات تحت السقف الواسع ذي اللون الأزرق، حينما بدا في أعلى السلم الضيق رجل ضئيل الحجم في رداء أسود، كاهن كلداني كاثوليكي من أصل إيطالي أخذ يهمس في أذني بالإيطالية بصوت خفيض:

«أنا أيضاً مبعد، وإنما لأسباب أخرى لنقل إنها دبلوماسية. ولتعرفى أنه إن كانت الكنائس المسيحية الشرقية تعيش حياة تكاد تكون هادئة كالأرمن مثلاً فإن مصيرنا نحن الكلدانيين الكاثوليك ليس ودياً، فالجمهورية الإسلامية تستريب في الكنائس المرتبطة بالغرب وبالتالي في الكهنة الذين يخدمونها، وخاصة الأجانب. وتصورى أننى عرفت نبأ طردى من إيران فى ذات اللحظة التى كان الكاردينال يهبط فيها من الطائرة. وقد طلبت منه التدخل لأننى أحب هذا البلد الذى رسمت فيه منذ تسع سنوات، لكننى لم ألتق منه سوى رد جاف «آسف

يا عزيزى ، لا أستطيع أن أفعل شيئاً .

وإذا كان القداى يجرى بالكداية فإن القراءات تردد بالعربية ، ويقول الكاهن الصغير مبتهجاً :

- أه آه ! الحراس والأمن وكل هؤلاء المسلمين الموجودين هنا فى الكنيسة لابد أنهم يشعرون بالحق ! أن يسمعو بالعربية ، لغة الإسلام المقدسة ، أن يسوع هو ابن الله !

## قربان تحت

### الرقابة

كيف لا أشعر بقدر من الشفقة لهذه الرعوس المخلوقة التى أراها محزوزة أسفلى ؟  
وها هم هؤلاء الأسرى يقفون ثم يسيرون نحو المذبح ويركعون ليتناولوا القربان ،  
وعدسات التصوير تتركز على كل تحركاتهم .

وهمس لى جارى :

- حتى لا يخطر لأحد أن يسر برسالة إلى الكاهن .

ثم خطاب الكاردينال ، بالفرنسية ، عبارات ماسخة ، اختتمها بالعبارة المتبذلة  
التى تصلح فى كل مكان .

- أشكر السلطات الإيرانية التى سمحت بهذا اللقاء فى مناخ من السلام  
والأخوة .. أمين .

إيماءات متكلفة من الأسرى ، وهم يمدون بخجل إشارياً مطرراً أو صورة مقدسة ،  
هدايا صنعوها بإخلاص فى المعسكر العارى ، هدايا للبابا ، البعيد للغاية هناك فى  
ترفه .

نغمات الأرنغ الأخيرة ، وأخذ الحراس يدفعون الرجال نحو باب الخروج .

ووقف الكاردينال على السقيفة ماداً خاتمة حيث انحنى عليه الجميع ليقبلوه . ولم يستطع كثيرون كبح دموعهم . . ليعودوا إلى المعسكر مرة أخرى ، لكم من السنوات ؟ ( وفي الوقت الذي أكتب فيه هذه السطور بعد ثلاثة عشر عاماً لم يعد بعد آلاف الأسرى العراقيين إلى ديارهم ) .

ثم جاء دوري لتحية الكاردينال . أكان الانفعال - كما يحدث كثيراً - هو الذي دفعني إلى استشارته ؟

- انظر لي يا صاحب السيادة ! هذا المعطف الطويل الرمادي الشائبة ! وفوق رأسي هذا الحجاب الأسود البشع ! وأنت يا أبى مسموح لك بارتداء الأحمر ! أحمر فى طهران ! أحمر من الرأس حتى القدم ! ثم رداءك . . اخبوك تماماً .

## ذكرى أكثر

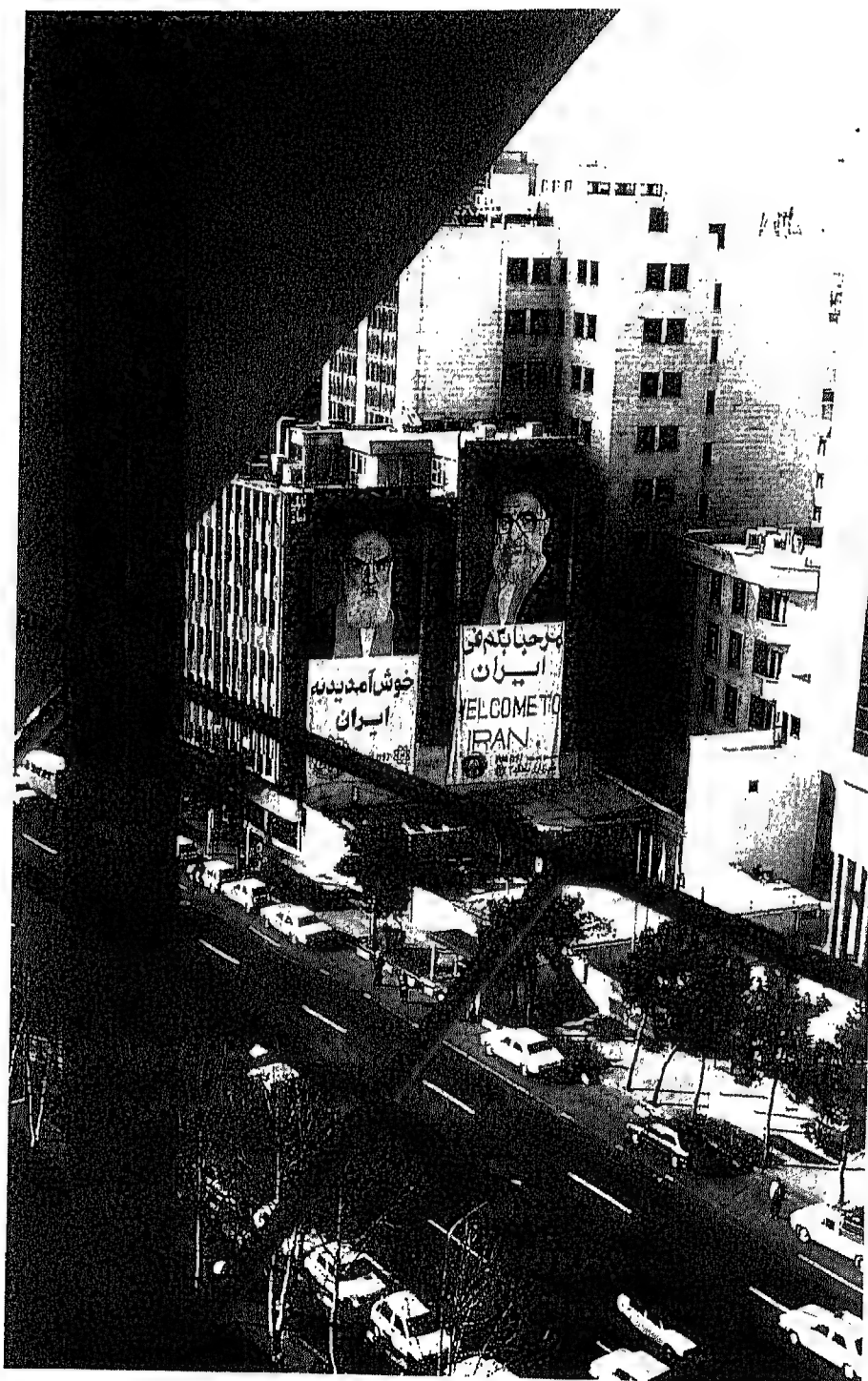
### من مليون قتيل

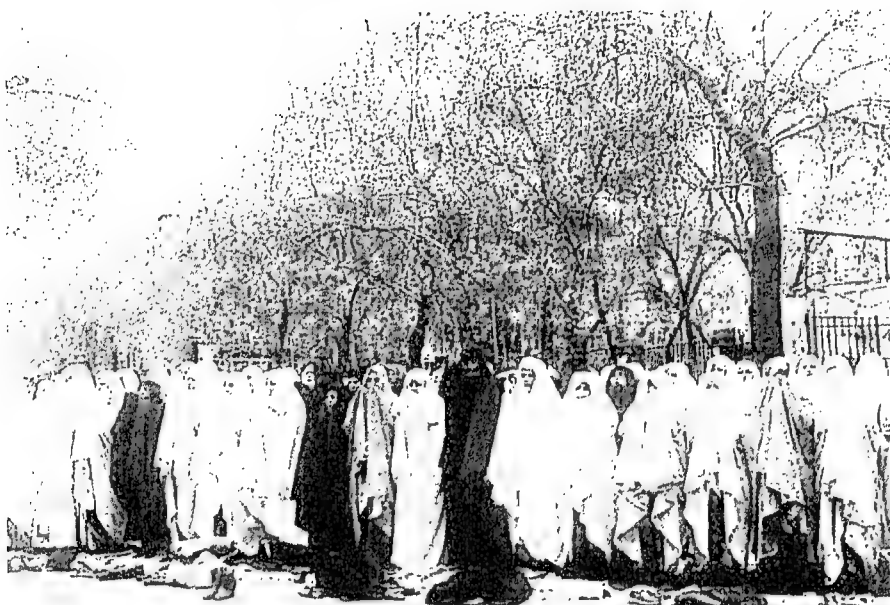
منزل صغير يطل على حديقة مهمة ، إنه المركز الإيراني لأدب الحرب الذى لا يوحى مظهره بذلك . وقد انتهت الحرب مع العراق ، التى خلفت وراءها أكثر من مليون قتيل ، فى عام ١٩٨٨ . وكانت تسع سنوات قد انقضت عند زيارتى اليوم فى عام ١٩٩٧ ، وهو على ما يبدو وقت كاف لحصاد آلاف الكتابات ، غير أن المركز لم يكن سوى ممرات خاوية وجدران عارية ، إذا استثنينا بضع شعارات قرضتها العثة هنا وهناك .

- اطمئنى ، فنحن على وشك الانتقال إلى مكان آخر فى طهران ، وستوفر للمركز فى المستقبل مساحات واسعة ومكتبات رائعة .

طيف مشرق يرتدى سترة وسروالاً من التيل . . كان مرتضى سرهانغى المسئول عن المكان ، والذى يظهر سنه الأربعون على محياه ، يبدو وسيماً رغم آثار الجدرى على بشرته ، وثمة شىء أليم يلوح فى ابتسامته .





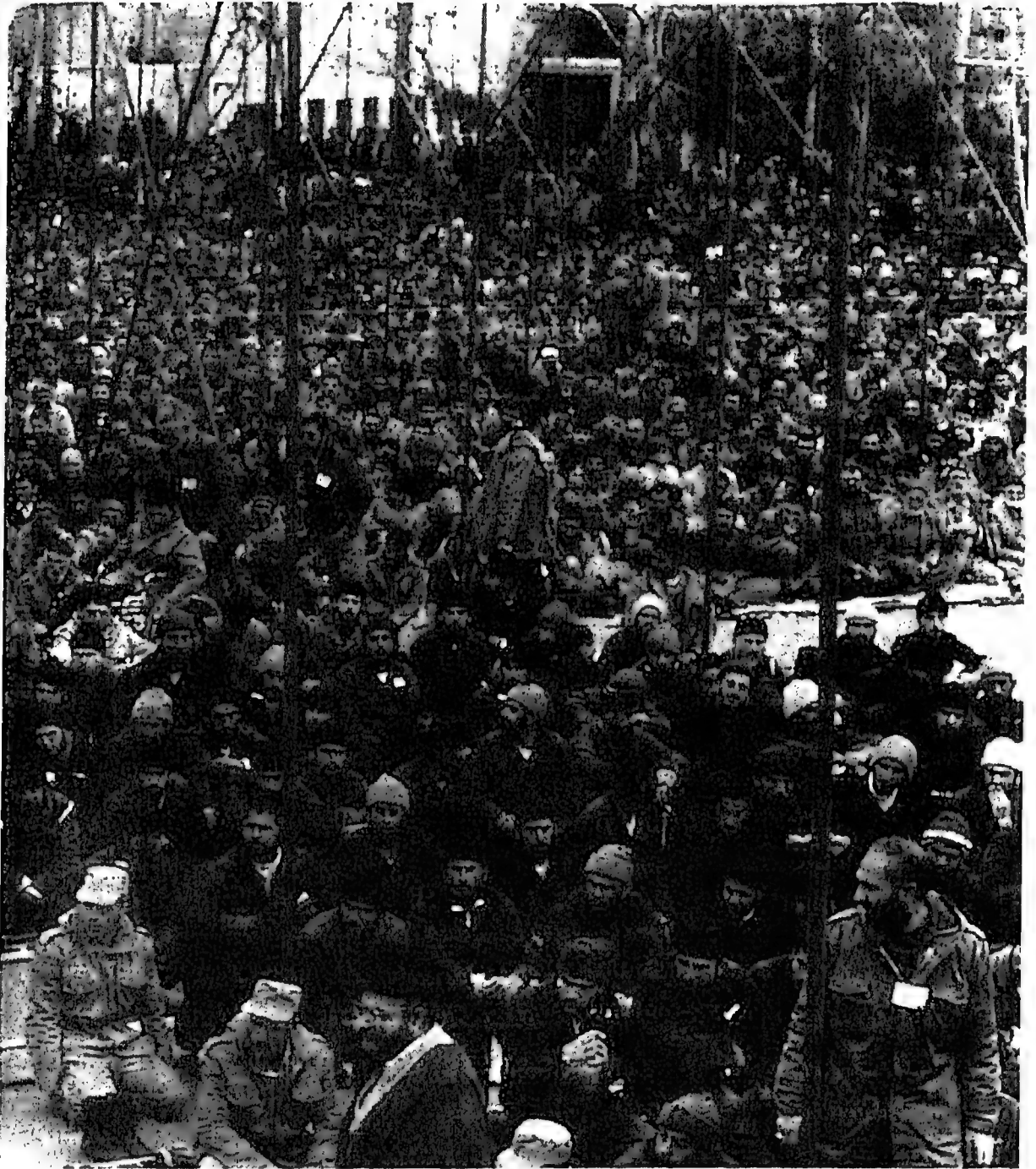


تؤدى صلاة الجمعة في طهران في مكان واحد هو حرم المدينة الجامعية، وتفصل النساء عن الرجال بستارة يبلغ ارتفاعها ثلاثة أمتار تمتد بطول سور الجامعة، ويصلى الرجال داخل المدينة الجامعية، بينما تصلى نساء في الشوارع المجاورة، ويصغين إلى خطاب آية الله من خلال مكبر الصوت، والمرأة التي ترتدى السواد (الواقفة في الصورة السفلى) أحد أفراد الحرس الثوري، ١٩٨٥.





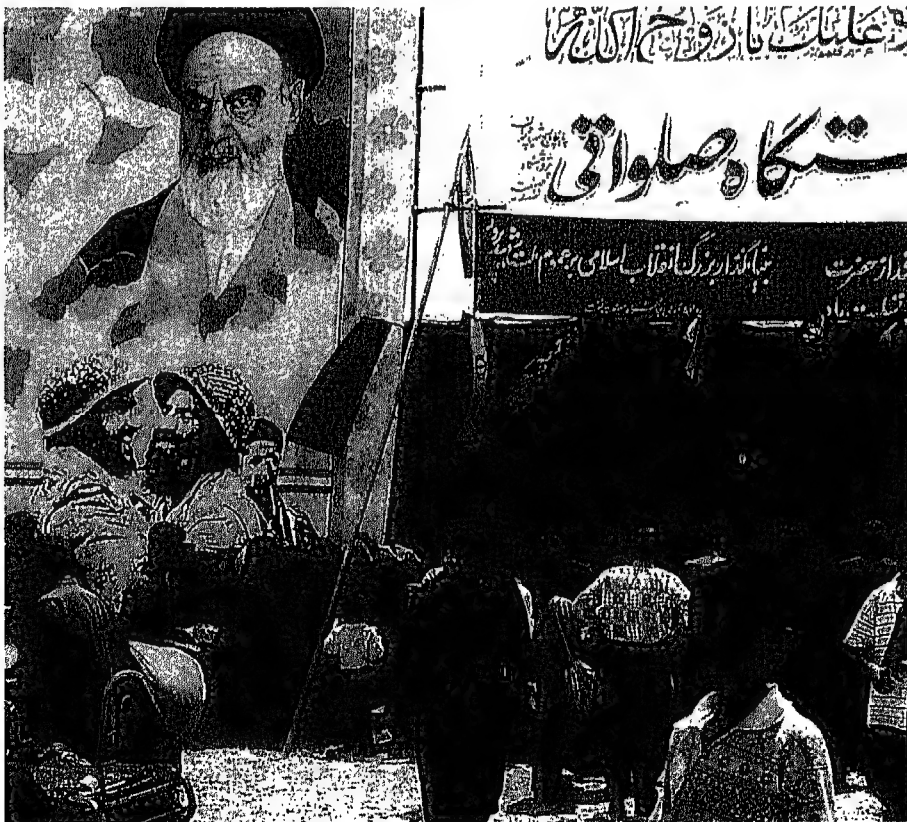


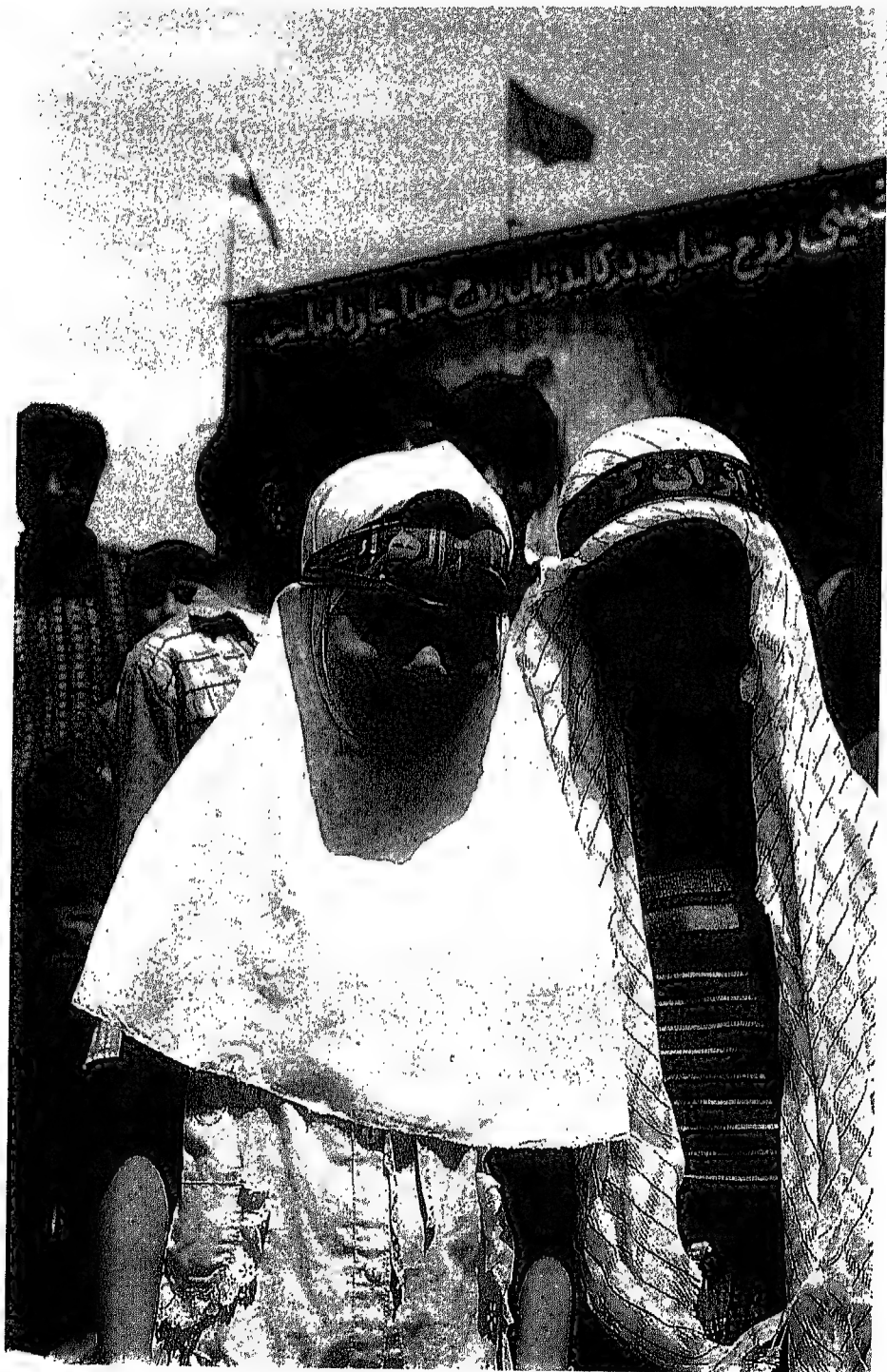


فى نفس اليوم.. الصلاة من جانب الرجال المحتشدين داخل المدينة الجامعية، ويستمر خطاب آية الله.. من فوق منبره المرتفع بالساعات ويستطيع أن نرى فى هذه الصورة التى التقطت فى عام ١٩٨٥ أثناء الحرب الإيرانية-العراقية، جرحى الحرب الإيرانية فى الصف الأول، وعلى يمين الصورة مجموعة من أسرى الحرب العراقيين.



توفي الإمام الخميني في ٤ يونيو ١٩٨٩ ويقوم ضريحه في مدافن بشتي زهرة الهائلة قرب طهران، حيث دفن أيضاً شهداء الحرب والثورة، وفي كل سنة يتوجه ملايين الشيعة القادمين من كل صوب، في إيران وخارجها - لإحياء ذكرى الإمام. وقد التقطت هاتين الصورتين في ٤ يونيو ١٩٩٧.









فايزة هاشمي رافسانجاني - التي التقطت صورتها هذه في عام ١٩٩٥ - هي ابنة رئيس الجمهورية السابق، وعضو في البرلمان، ورئيسة تحرير صحيفة نسائية، كما أنها أسست في عام ١٩٩٣ أول دورة أولمبية إسامية للمرأة (الصفحة إلى اليمين).

فريق لاعبات الهوكي الإيرانيات، في زيهن الإسلامى، قبل المباراة، ١٩٩٥  
(الصورة السفلى)



كثير من المهن مفتوحة أمام المرأة الإيرانية، مثل مصورة التلفزيون هذه، ١٩٩٧.





دليلى أثناء أول تحقيق صحفى أقوم به فى إيران بعد الثورة، ١٩٨٥ (المؤلفة)

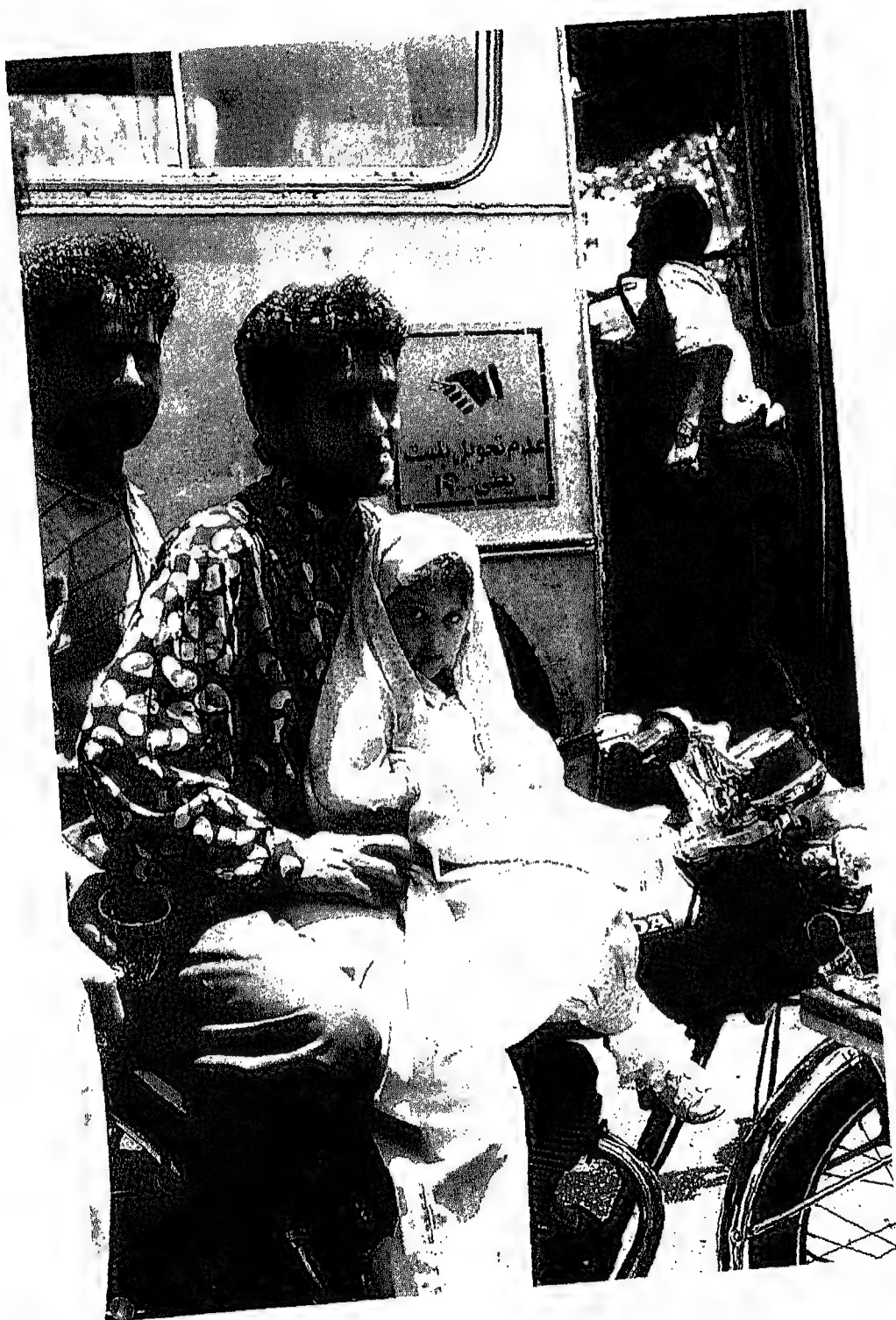


## صور حية من إيران



ملات يعبرون مدافن بيشى زهرة الهائلة قرب طهران.. التقطت الصورة فى عام ١٩٨٥ أثناء الحرب العراقية الإيرانية، وترفرف الرايات على القبور، تحمل كل منها صورة شهيد من شهداء الحرب أو الثورة.

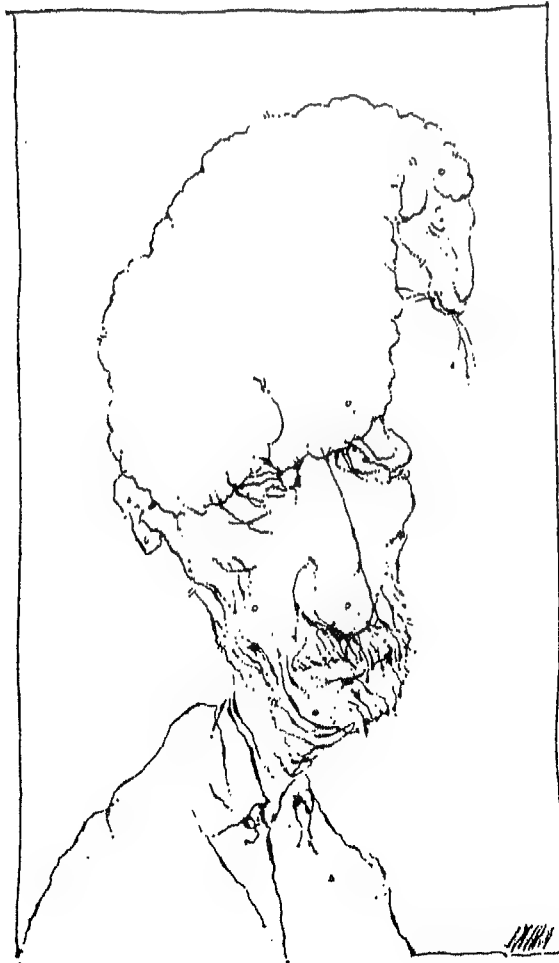


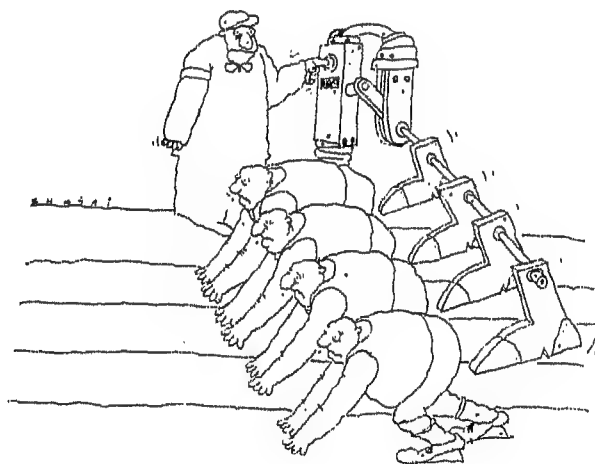
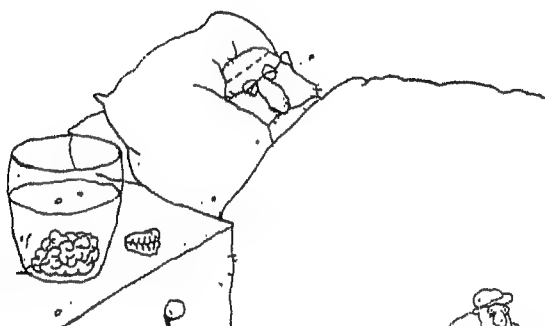
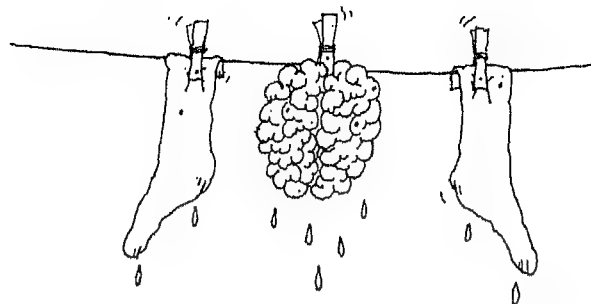


والدان يفيضان رقة وحناناً. الصورة في الصفحة اليمنى: في طهران عام ١٩٩٧،  
الصورة السفلى: في أصفهان عام ١٩٩٧، الصورة العليا: لافتة منصوبة في أحد شوارع  
طهران تقول «طفلان فقط.. تصبح حياتك سعيدة!»



بعض رسوم مسعود شوجاي طاباطبائي الشهير، رئيس تحرير مجلة «كايهام كاريكاتير» («كاريكاتير العالم» بالفارسية)، في طهران. ولا تقتصر هذه المجلة على المواهب المحلية، إذ تستقبل صفحاتها فنانون أجانب، وخاصة من البلدان العربية، كما تنظم المجلة دورياً في العاصمة مسابقات ومهرجانات دولية تعرض صوراً كاريكاتيرية ورسوماً من كل أنحاء العالم حول موضوع معين.







جلسة عائلية في منزل رسام الكاريكاتير شوجاي طاباطبائي (انظر الصفحات السابقة).





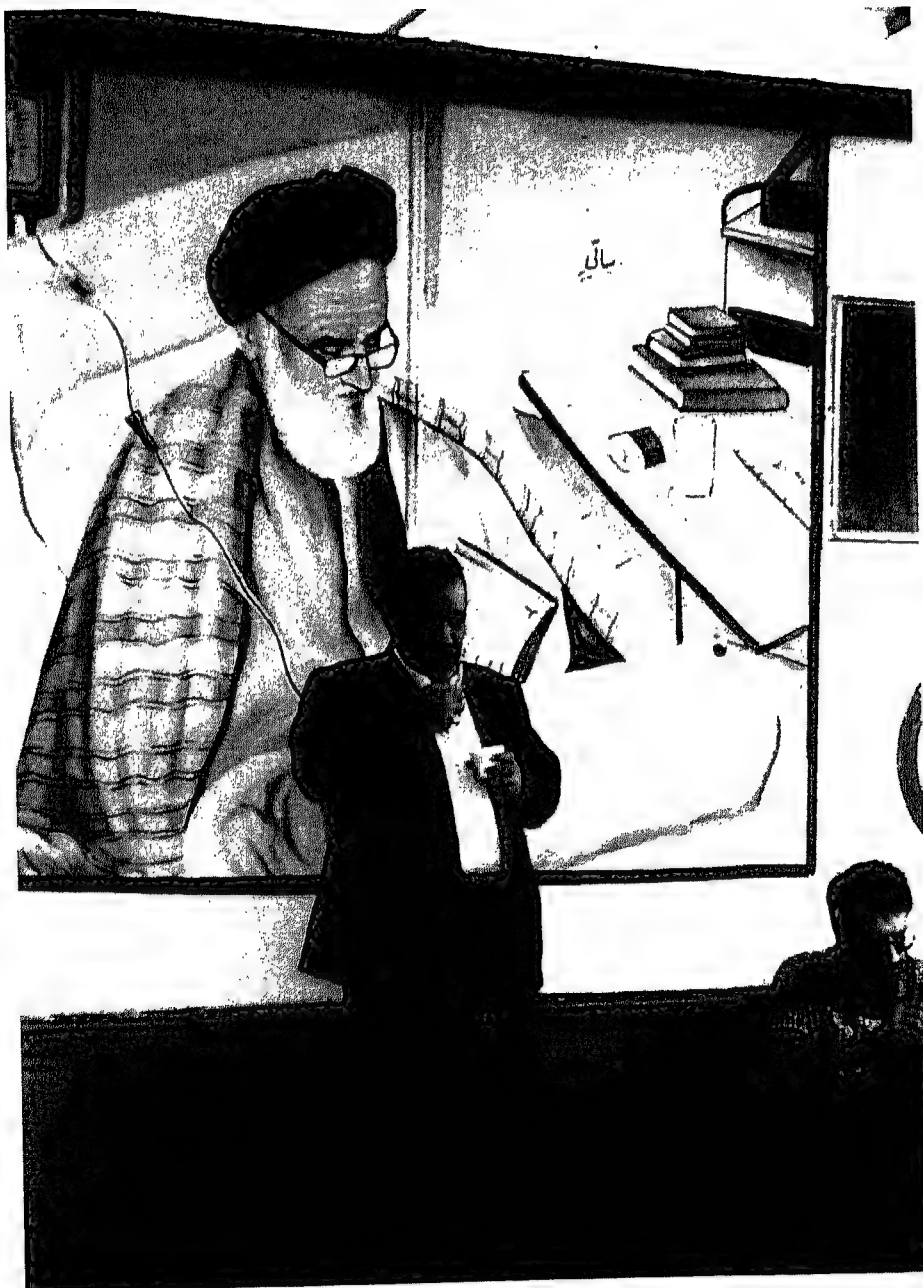




الصفحة إلى اليمين: بنت صغيرة تمسك بيد أمها، التقطت هذه الصورة فى عام ١٩٩٧ فى مدينة «مشهد» المقدسة شمال إيران.  
الصورة إلى أسفل التقطت فى عام ١٩٨٥: تلاميذ وتلميذات فى رحلة إلى مدافن الشهداء فى بيشتى زهرة قرب طهران، حيث يرقد الآن أيضاً الإمام الخمينى.

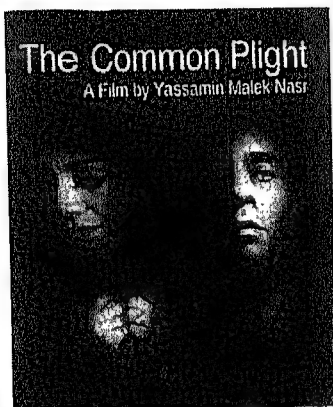


صيف عام ١٩٩٧، اثنان من المارة يتناولان (الآيس كريم) أمام لوحة تبين الإمام الخميني في فراش مرضه قبل الوفاة. صورة التقطت في مدينة مشهد المقدسة شمال إيران.



الإمام الخميني مع كبير الأساقفة الأرمن أرتاك مانوكيان في عام ١٩٧٩.





تتمتع الإيرانيات العاملات في مجال السينما بالكثير من المواهب ، وياسمين ملك نصر التي ألتقطت لها هذه الصورة ، في عام ١٩٩٧ ، ممثلة ومخرجة. وفي أعلى الصورة إعلان عن أحد أفلامها (نفس الألم).



## صورة حية من إيران

- سيكون هذا المركز هو ذاكرتنا، وترجع فكرة إقامته إلى عدد من الصحفيين الذين قاموا مثلي بتغطية الجبهة ضد العراق.

وسرهانغى واحد من المراسلين الحربيين الذين تلح عليهم الحرب، ويرتبطون معها - على شاكلة غيره من البشر، صحفيين أو غير صحفيين - بعلاقات ملتبسة، فهو يقول إنه يكرها:

- لا يحب الحرب إلا إنسان شاذ...

لكنه يبدى مع ذلك انبهاره:

- .. فالمرء يرحل، ويغير حياته وقواعدها، ويحس بالالتحام والتجاوز، تصورى أننى رأيت أناساً لم يمسكوا أبداً بقلم يسطرون فجأة أشعاراً على أكمام حلتهم العسكرية!

ثم يكشف سرهانغى أمامى حقيقة من المؤسف أنها معروفة جيداً، ومن الأسف أنها حقيقة كلية، وهى أن ثقافة الحرب تبيع جيداً.

- فكل هذه الكتب عن جهادنا ضد العراق يطلبها الجمهور بشدة، لقد نشر مركزنا حتى الآن نحو خمسين كتاباً، بمتوسط توزيع للطبعة الأولى ستة آلاف نسخة.

أهذا صحيح فى الجانب الآخر؟ فى بغداد؟ قال سرهانغى إنه لا يعرف، لكنه أسرع ليقول فوراً إنهم فى طهران لا ينسون العدو العراقى القديم وماذا يحكى بدوره.

- وعلى أى حال فإن نصف المأساة من نصيبهم، ولهذا فإننا نعطيهم الكلمة. كلا، كلا، إننا لا نخشى على أمنهم، فحين ننشر شهاداتهم نوقعها دائماً تقريباً باسم مستعار، فمن واجبنا أن نغطى هؤلاء الرجال الذين أولونا ثقتهم...

... والذين كثيراً ما اعتنقوا أيديولوجية جمهوريتنا الإسلامية - لكن هذا ما لم يقله لى سرهانغى، فوفقاً لما تشمل هذه الاعترافات الجميع: من جنود عاديين أميين سجلت اعترافاتهم على المسجلات، وفنانين وأطباء وحتى أحد الجنرالات والغالبية العظمى من هذه القصص جمعت من بين الأسرى العراقيين المحتجزين فى إيران.

والحق أن سنوات وسنوات فى المعسكر تترك لك متسعاً من وقت الفراغ.

## «أنا أهدم»

### بيت ريجان

حوليات وروايات وقصائد... ولدى المركز الإيراني لأدب الحرب كذلك كُتاب أجانب، وخاصة من الغرب. فالحق أن أدب الحرب - شأن حماقاتها - ليست له حدود.

- كل هؤلاء الكُتاب عرفوا الحرب كما عرفناها، وعانوا ظلها الذي يروح فوقك بقية حياتك... وتلك الأشياء التي لا يستطيع أحد حولك أن يفهمها... لقد عرفوا جيداً كيف يقولونها.

#### وذاكرة المرأة؟

- لنسائنا بدورهن قصصهن، وهذا طبيعي، وقد خصصنا لهن أربعة من كتبنا، الممرضات، والصحفيات، وكثيرات منهن قد أسرهن العدو، وأبقاهن أسرى... على أن النساء لم يحاربن والسلاح في أيديهن.

ربما لم يكن السلاح في أيديهن، وإن تعارض هذا مع الصور الدعائية لفتيات يحملن المدافع الرشاشة، ويرتدين الشادور كأنه راية، إلا أن هذا لا يمنع كثيراً من الإيرانيات قد قاتلن، وإنما بطريقتهن الخاصة، في الكواليس. وإذا كنت أتحدث كثيراً عن النساء في هذا الكتاب، فلأني واحدة منهن، امرأة، ولأن السلطات الإسلامية قد وجهتني بالطبع إليهن. يالهؤلاء السيدات - الحائكات في الإدارات المساعدة للجيش! العاملات بالإبرة نهاراً وليلاً، أو منكبات على ماكينات سنجر العتيقة. وفي قلب الحرب انتحت بي بعنف واحدة منهن، معتقدة أنني مبعوثة للشيطان الأمريكي الأكبر، وصاحت بي وهي تضغط بعنف على دواصة ماكنتها: - انظري! انظري أيتها الأمريكية. إنني في كل دفعة بقدمي أهدم قصر ريجان.



## الساحرات

ولا يمكن أن أنسى كذلك سيدات غار الساحرات كما تستعيدهن ذاكرتى عام ١٩٨٥، ولم تكن طهران ذلك اليوم فى حرب فقط بل كانت فى الشتاء حين يتطابق عرى الأشجار واكتئاب البشر ليضيفا على الناظرين شعوراً غريباً بأنهم يرون مدينة مصورة بالأبيض والأسود.

ويقع غار الساحرات فى حى شعبى، فى قبو مجموعة من المساجد تحت البناء تسمى حميدنيان، وما إن تجاوزنا الباب المؤدى إلى الكهف حتى تصاعدت أمامنا من رطوبة السلم البارد أصوات شديدة الحدة. وفى الهواء كانت تفوح رائحة الكراملة.

## كى يموتوا

### والحلاوة فى أفواههم

مشهد من الليل واللهيب، فالكهف يأوى غرباناً لامعة تشبث باليدين بعضى هائلة، وتقلب فى حركة دائرية واسعة عصيدة غليظة من المولاس فى قدور ضخمة تشتعل تحتها باستمرار نار كالجحيم.

وحين تترك النسوة عصيهن لحظة فما ذلك إلا ليتحولن إلى دراويش يدرن حول أنفسهن، يدرن ويدرن، وهن يرفعن أكواباً صغيرة من الشاي، فى سلسلة غير مقطوعة من الانتخاب الساخنة فى سبيل الله.

الله ! الله ! الله ! والعرق الذى يتصبب على الجباه، ويسيل بين التجاعيد، ويعكس حمرة اللهب، إنهن نساء بسيطات، أحسن بهن يتحولن، وقد انتشين بحماسة الوجود، ربما للمرة الأولى فى حياتهن، كم هى جميلة الحروب والثورة التى تتيح للنساء لحظات من الحرية. لكى تحبلهن بعد ذلك، ما أن تنتهى المعارك،

إلي مكانهن الأصلي: الخزانة. وتمحى قصتهن من التاريخ، ثم يحل النسيان سريعاً.  
وكم هي ملحة رائحة الكراميل. ولكن لماذا كل هذه العذوبة؟  
- من أجل شهدائنا! وأفضل صنف للصوف الأولى!

إنها في الثالثة والخمسين.. زهرة محمودى ذات الصوت القوى والاستدارات  
البارزة، الرئيسة بلا منازع لجموعة صانعات الحلوى، وهى التى تصحب مواكب  
الكراميل بانتظام مرتين في الشهر إلى الجبهة.. طناً ونصف طن من الحلوى على  
الأقل منذ خمسة عشر يوماً فقط.  
- وهكذا يموت أولادنا ومذاق الحلاوة في أفواههم.

## السيدة القائدة

### تستقل الهيلوكبتر

وتستطيع زهرة - عندما يتعلق الأمر بتدليل محبيها، أولادها كما  
تسميهم - أن تتصدى حتى للقنابل، فالأمر لا يتعلق بالكراميل فحسب،  
فالمؤمنون يتبرعون بسخاء للحرب المقدسة. ألف زوج من الأحذية في رحلتها  
الأخيرة، والوسائد والأغطية والمدافىء والأدوية، تحمل (الباسيوناريا) كل  
شئ في أمتعتها. وموضع اعتزازها الكبير؟ كبائن (الدش) المتنقلة.

- هذا شئ رائع في الصحراء. إنها تركب وتفك في الموقع، ويأتى الماء  
الساخن في الصهاريج. وبفضل أجهزة لتدفئة المياه بالنفط يستطيع أولادى  
أن يوفروا لكل واحد حماماً ساخناً جيداً. إن أولادى يذهبون إلى الفردوس  
نظيفين!

لكم هي مشيرة زهرة، التى مضى البعض إلى حد تسميتها القائدة رمزاً  
للاحترام. وبعد ثلاثة عشر عاماً كنت أمر بالصدفة أمام مسجد حميديان

بشارع رأى ففكرت فيها، هل عادت دون تدمير إلى عالم النساء المغلق؟ وعادت إلى بصرى ثانية وهى تهبط، فى عظمة واعتزاز، من دبابة أو طائرة هيلوكبتر، ويكاد الهواء الذى يملأ شادورها يحملها.

## عراقى

### غامض

- بالأحضان ! ألم تكفنا الحروب ؟

إنه لأمر مذهل هذا المظهر التلقائى للصدّاقة بين إيرانى وعراقى، وهو فضلاً عن ذلك مجهول، والأكثر إثارة للدهشة أنه يصدر عن مصور إيرانى غطى مراراً خطوط الجبهة الأولى. وقد احتفظ فرهاد كرىمى من هذه الأيام الرهيبة بارتعاشة عصبية واستشارة دائمة، لكنه لم يفقد مع ذلك إنسانيته.

كنا قد قابلنا معاً هذا الصديق العراقى، هو وأنا، أثناء زيارة للمتحف الوطنى للفن الإيرانى فى طهران. وكان هذا بعد ستة أشهر من حرب الخليج فى سبتمبر ١٩٩١. وكان فرهاد دليلى ونحن نسير وأنفانا ملتصقان بالحائط نتأمل بإعجاب أروع المنمنمات الفارسية. «لقد رسمت بشعرتى قطة» هكذا قال لى فرهاد كخبير وابن مخلص لأبيه، الذى ليس سوى على كرىمى فنان المنمنمات المعاصر الشهير. «انظرى يا سيدتى، إن المرء يرى كل رمش وكل شعرة من شعرات اللحية».

كان العراقى ينحنى نحونا فى أدب، لا تفوته كلمة من حديثنا. وأنا أقول العراقى لسبب بسيط هو أنه رفض أن يذكر لى اسمه حتى الدقيقة الأخيرة، حتى حين اعتقدت بسذاجة، ونحن نجلس متواجهين فى ركن معتم من المقهى الذى اختاره كثير من مواطنيه مقرأً عاماً لهم، أننى قد كسبت ثقته، فكل ما عرفته هو أن هذا الرجل الوسيم المهدب، ذا الصوت المتحلق الذى يتحدث بالإنجليزية أكسفوردية، هو سليل إحدى عائلات بغداد الكبيرة القديمة.

أنتى أمتلك أربعة منازل هناك، وأستطيع أن أعيش ملكاً... ورغم هذا فقد هربت... فكل شيء أفضل من رعب الطرقات على بابك عند الفجر، إن صدام حسين وحش بشع.

أما أن دكتاتور بغداد يضطهد مواطنيه فهو أمر لا ينكره أحد، وأما أن الحصار الأمريكى البشع المفروض على العراق منذ حرب الخليج يدفع المزيد والمزيد من البؤساء إلى المنفى فهذا أمر واضح. إلا أن المرء يمكن أن يشعر بالدهشة من أن يختار العراقيون، بعد ثمانى سنوات من الحرب وملايين القتلى، إيران بالتحديد ليلجأوا إليها، لكن فى دهشتنا هذه نسياناً لأن نصف العراقيين من الشيعة، وأن ثمة رابطة تنبض بينهم وبين الإيرانيين تتجاوز كل سلاح.

## أخى كان يحلم

### بحكومة إسلامية

وفى لقائنا الثانى جاء الأرسقراطى العراقى وبصحبه شاب أشعث بقدر ما كان هو متأنقاً.

- إنه أحد مواطنى الذى وصل لتوه من مخيم للاجئين العراقيين فى الأراضى الإيرانية، وقد صحبته لك لكى تصفى إليه، ولكى تكّونى فكرة عن عراق صدام حسين...

وقد طلب الشاب الأشعث بدوره ألا يكشف عن اسمه.

- كنا فى عام ١٩٨٠، وكان اثنان من إخوانى فى المسجد يتناقشان مع الآخرين، واندس جواسيس بينهم وسمعوا كل شيء. كان شقيقاى يحلمان بحكومة إسلامية... إننا يجب أن نتخلص من هذا الملحد صدام... وقد أخذتهما الشرطة ولم نرهما بعد ذلك أبداً... كما ألقى القبض على أخ ثالث لى، وعذبه، وعلقوه من قدميه فى السقف. ومات أبى حزناً، ولم تعد أُمى تبتسم، وقد هربنا معاً أنا وهى،

وهي تنتظرني في مخيم اللاجئين، ولن نعود إلى العراق أبداً، وإن كان صدام يتظاهر بأنه قد عفا عنا لكي يدفعنا إلى العودة.  
ومر بيده على عينيه.

- لقد قص على رجالنا الذين حاربوا حرس صدام في البصرة ونجحوا في فتح السجون كل شيء. شيء رهيب، رجال مغللون طالت أظافرهم كشعورهم.. رجال أصيبوا بالعمى، والبعض مسجونون هناك منذ أمد بعيد حتى أنهم لم يعرفوا أن شخصاً يدعى صدام حسين قد وصل إلى السلطة.

## وصول ليلى

### إلى طهران

ديسمبر ١٩٩٧... رحلة لوفتهانزا إلى طهران تحفل بجماليات معطرات يرتدين معاطف طويلة راقية، ويحملن حقائب (فويتون) الفاخرة، والأوشحة ماركة هرميس في متناول اليد، أي في متناول الرأس، تحوطاً للهبوط (أما في رحلة لوفتهانزا من طهران إلى فرانكفورت فإن الأمور تمضي على العكس تماماً، فالأوشحة تطير فوق المقاعد حال الإقلاع).

وبعد عبور الجمارك تم التفتيش، تغوص الجميلات بصحبة أزواجهن وجبال حقائبهن على الفور إلى سياراتهن المترفة التي تنتظرهن، والتي تقودهن إلى النهاية، بعد أن تعبر المدينة بسرعة، إلى دورهن، إلى أمان بيوتهن.

وبقدر ما أذكر فإن عمليات هبوط القادمين من أوروبا تجري في قلب الليل، وربما تكون عمليات التفتيش قد خفت عن سنوات الثورة الأولى، ورجال الجمارك أحياناً ما يهدونى ابتسامة، إلا أن الصدمة تظل دائماً نفسها حين أرى، وأنا أدفع أمتعتي على العربة، الجموع التي تسرع خلف الحاجز: هذا السيل من النساء يرتدين السواد، والذي لم أستطع أبداً أن أعتاده.

كما أجد على طول الطريق الواسع صوراً عملاقة للشائى الشهير الخمينى - خامنئى، وقد سلطت عليهما الأضواء دائماً فى احترام. ثم تأتى جولة الجسور والمفارق. وتنتصب طهران ذات العشرة ملايين نسمة فى مواجهة السماء. وفى الأسفل تقف بضعة منازل طينية.. نظرات إلى اليسار، ونظرات إلى اليمين، ومن رحلة إلى أخرى لم تغادر المدينة أبداً صور شهداء الإسلام الضخمة. وهنا وهناك تومض مصابيح المقاهى المفتوحة حتى فى الليل. ثم تنكشف أمام التاكسى شوارع فسيحة تحف بها حدائق العاصمة، المدينة الكبيرة والحديثة شبه الغربية، حلم شاه اختفى وتركها مزروعة هنا وقد أضاعت روحها الفارسية.

وطهران نائمة، وفى كل لقاء ليلى كنت - ولا أعرف لماذا - أفكر فى الرجال والنساء الذين ينامون هناك، أو لا ينامون وإنما يتقلبون على جنوبهم فى أحلام كوابيسهم.

فهناك.. يقوم إيفين، السجن السياسى الذى أقيم على سفح الجبل شمال المدينة.. إيفين الذى يحيط سوره الذى لا ينتهى بمباني السجن إحاطة الجبل بعنق المشنوق.

## إلى السجن

١٩٨٥، والسماء لا تلقى بالاً لمظاهر العنف السوداء فى أيام الثورة والحرب، وشمسها تضىء نهراً بارداً أزرق من أيام ديسمبر، غارقاً فى هواء نقى شفاف كأنما صقله الله.

والطريق يلتوى كالشعبان منحدرًا، محاطاً بأشجار صنوبر زرعت حديثاً، ومواقع البناء فى كل مكان.. إن طهران تتضخم، ويتولد فى هذه الأرض المليئة بالحصى (موزايكو) معقد من المباني البيضاء وناطحات السحاب، وعلى واجهات أحد المباني، صورة الخمينى، يبد وفيها - بخدعة من خدع البصر - كأنه يخرج بشخصه من تلوج جبال البورز التى تسد قممها الآفاق.

والسيارة تنطلق، وأنا أقلب صفحات «صورة إيفين» الذى أعطته لى هذا الصباح  
وزارة الإرشاد الإسلامى تحضيراً لزيارتى. ويشبه هذا التقرير عن سجون مكتب  
المدعى العام للشورة الإسلامية، كتيباً سياحياً ملوناً على ورق مصقول. يصور إيفين  
باعتباره «سجناً نموذجياً لإعادة التربية الروحية لإخوتنا وأخواتنا الضالين»، والحق  
أن النصوص التى تدعمها الصور، والمترجمة إلى الفرنسية والإنجليزية، نصوص  
تربوية فى حد ذاتها، مثل هؤلاء المسجونين الذين أعيدت تربيتهم وهم «بيلبطون»  
سعداء فى حوض سباحة «تحت أنظار مجموعة من الطلاب الإيرانيين المستنيرين  
القادمين من الخارج»، والذين «سيحملون معهم إلى العالم كله حين يعودون فرحة  
المسجونين التائبين ونقاءهم الروحى».

ويسود التوتر... إننا نقرب... يصمت سعيد وبسام دليلاى الرسميان، من  
إخوة وحراس الثورة. كما تصمت أيضاً أختى الدليلة الجالسة بجوارى على المقعد  
الخلفى.

وتدور السيارة إلى اليسار، وترتقى المنحدر، وتسير بطول جدار، ثم تقف أخيراً  
أمام باب صغير ليس فيه ما يميزه. وفى اللحظة نفسها يبرز منه شخص مغطى  
بالشادور، يتوقف عند العتبة... وتتردد... وفى الجانب الآخر من الطريق يقف  
رجل أشيب متربحاً مستنداً بظهره إلى هيكل سيارة. وخطا ثلاث خطوات... هل  
هى هذه؟ أهى حقاً؟ كيف له أن يعرف أمام هذا الزى... ورائته، وعرفته، وتبينها،  
وجرت نحوه، طار وطارت حولها الأوشحة السوداء، وقبلها بجنون، وغاصت فى  
السيارة التى انطلقت كالبرق.

وعلق سعيد قائلاً «إنها سجينه أطلقوا سراحها». والغريب أن مرافقى كانوا  
منفعلين للغاية.

وفحص إخوة آخرون فى نفس مظهر الإهمال، ولحاهم لم تحلق منذ ثمانية أيام.  
يرتدون (جاكتا) فوق سراويل رثة تصاريحنا ثم سبقونا، ومدافعهم الرشاشة على  
أكتفاهم، فى تيه منه الممرات الضيقة التى تقود إلى فناء السجن الداخلى.

ولمحت عدة أحواض من الزهور تتلوى تحت برد الشتاء.

- الصيف يا سيدتى، ينبت زهوراً بلون دماء شهدائنا.

كلهم

سياسيون

فى قاعة الاجتماعات فى السجن كان نبات أخضر يذبل فى أحد الأركان .  
وتبدو على رضا فكور مدير سجن إيفين سيماء مهنته ، وهو رجل فى نحو  
الأربعين ، ذو وجه مستدير فيه أثر ندبة وعينان باردتان نفاذتان ، وارتفع صرير  
المقاعد ، وجلسنا جميعاً حول مائدة زجاجية ، يتوجها دورق مياه ومصحف ،  
والشك يحوم فى الجو من كلا الجانبين .

وحولنا انتشرت اللحى . وهبط طبق من اليوسفى على المائدة ، وأمسكت  
آلياً بواحدة بينما استمررت فى الكتابة بيدى اليمنى ، وأخذت أدون وأدون  
ملاحظاتى ، والكتيب يقول إن الجميع فى إيفين يعاملون المسجونين الثائبين  
معاملة طيبة . وها أنا الآن هنا أرى المكان - أو لعلنى لا أرى حقيقته - وما ينبغى  
أن يفوتنى شىء من تفاصيله .

وفتح الباب فجأة ، واندفع منه سيل من الرجال أحاطونا بسرعة وهم  
يحملون كاميرات الفيديو وآلات التصوير العادية والعدسات المقربة  
والفلاشات ومكبرات الصوت .

وبعد تحضير على هذا النحو بدأ رضا فكور يتفاخر بسجنه .

- الحراس والمساجين كلهم - باستثناءات نادرة - دون الثلاثين ، فالشباب هو  
المستقبل . أليس كذلك ؟ وكل ما علينا هو أن نربيهم . إن لدينا ألفى مسجون  
سياسى ، بينهم إرهابيون وجواسيس ، وكل الشراذم المعادية للثورة ممثلة  
لدينا . وبالطبع فليسوا جميعاً ممن شاركوا فى العمليات المباشرة ، لكن هذا لا  
يمنع أن أيديهم - بشكل ما - ملوثة بالدماء .

- وماذا عن العقوبات ؟

- من ستة شهور إلى السجن المؤبد .. ولكن لا أهمية لهذا .



- ماذا؟

- أنت لا تفهمين يا سيدتي فنضالنا ليس سياسياً بالمعنى الضيق للكلمة.

- أوه!

- نعم. إنه نضال أيديولوجي يرمى إلى أن نعود بإخوتنا وأخواتنا إلى الطريق القويم.

- حسناً!

- ودروس التربية الإسلامية تستمر أربع ساعات يومياً، نستخدم فيها الفيديو كثيراً، ويتأتى مسئول عن وزارة العدل الإسلامية مرتين في الشهر ليلتقي بالمسجونين، الذين يمكن أن يوجهوا له أى سؤال يخطر بأذهانهم، ونحن كرماء جداً فى إيفين، وأحياناً ما نفرج عن المسجونين بكلمة شرف بضع ساعات أو بضعة أيام بل حتى شهراً. وتصورى أن أقل من واحد فى المائة هم الذين استغلوا ذلك ولاذوا بالفرار! وهذا ما يبين لك قوة الإسلام!

كانت أنوار الكشافات المسلطة علىّ دائماً تخطف بصرى، فأخذت أحمى وجهى بيد، بينما أمسك القلم باليد الأخرى.

- إن مساجيننا يعلمون، ويحصلون على أجر، وبعضهم يرسل هذا الأجر إلى أهله، وكثيرون يتبرعون به لدعم مجهودنا الحربى ضد العراق.

أى نجاح عظيم حققه إيفين.. كل إرهابى الأمس هؤلاء الذين تحولوا إلى أنصار.. ترى هل يصل بهم الأمر إلى حد التطوع؟

- كلا... كما أن وضعهم طالما ظلوا هنا يظل وضع المساجين، ومحظور عليهم أن يقاتلوا... لكننا نصحب مجموعات صغيرة منهم إلى الجبهة من فترة إلى أخرى.. مما يبذر فى رؤوسهم أفكاراً طيبة.

وأكد لى المدير العزيز أنه يعرف كثيراً من أعداء الثورة التائبين الذين ما أن يفرج عنهم حتى يسرعوا بالانطواء تحت راية الإسلام وتحت نيران العراق.

ولكن فلنسرع.. إن أمامنا كثيراً مما يجب أن نراه. وطاف بنا فكور

وصنائعه السجن بسرعة بالغة... والكاميرات تتبعنا.. وظهر مكبر صوت صغير تحت أنفى يحمله رجل رشيق أخذ يتبعنى أينما ذهبت.

وتوقفنا عند مدرج كبير، أخذ مسجونون - ممثلون يؤدون أمامى وحدى قصة ذلك البائس - سلمان الفارسى - الذى ضل طريقه، لكنه بعد الكثير من المغامرات وجد فى النهاية - بفضل الله - طريق الإسلام.

وعلى مسافة أبعد قليلاً، فى نهاية الممر، مشهد مسرحى آخر... كان مسجونون آخرون يهتفون وقبضاتهم مشرعة بما لقنوه من شعارات معادية لأمريكا. وانتهزت فرصة الصخب وتبادلت بضع همسات بالإنكليزية مع شاب نحيل، يرتدى (بلوفرأ) أبيض برقبة.. وهمس لى وعيناه متعلقتان بعينى.

- إنهم يتهموننى بأننى ماركسى.

غير أن رضا فكور ظل يتابع (السيناريو) الذى يؤديه.

- حسناً يا مساجينى! هل تعانون من الجوع؟ هل تساء معاملتكم؟ هل تعذبون؟

وكانت سيماء الصحة تبدو فعلاً على (العينة) التى قدمها لى.. أناس عاديون جداً، ليس على وجوههم ما يكشف شيئاً عما يدور حقاً خلف هذه الجدران، كل هذه الجدران، فى كل مكان.

## كل شيء

## هادئ فى إيفين

قيل لى «لأنك امرأة فستزورين قسم النساء هناك، وسترين ورشة أخواتنا».. حسناً، هاهن هنا، أخواتهم، أخواتى، أخوات بائسات، غارقات حتى عيونهن فى

## صورجية من إيران:

حجابهن، ورءوسهن منحنية على آلات الحياكة. وبإشارة من الحارس ترتفع معا: «الموت لأمريكا»... نفس الشعارات التي سمعناها منذ فترة، وإنما تعلو بها هذه المرة أصوات نسائية.

قاعة ضخمة مضاءة بالنيون، وتلك الكتل السوداء مصطفة في الممر. مشاهد أشبه بروايات أورويل. كم عددهن؟ ربما نحو مائة، وما متوسط أعمارهن؟ بين العشرين والخامسة والعشرين.

- من هنا يا سيدتي!

خمس وعشرون عاماً، هذه بالدقة هو عمر ميرزاد نازيري، التي اقتادوني إليها بخطوات سريعة «لأنها تتحدث الإنجليزية». ووجهها الصبح نصف مخبئ تحت الحجاب، وعيناها تنظران إلى أسفل، وصوتها رتيب:

«كنت وزوجى عضوين فى اتحاد الطلبة الإيرانيين فى الولايات المتحدة. لم أكن أحب الشاه، وقد عدت مفعمة بالأمل بعد قيام الثورة، وانضممنا إلى الحزب الشيوعى، وكنا نعمل فى أحد المصانع حين ألقوا القبض علينا، وحكم على بالسجن تسع سنوات - قضيت منها ثلاث سنوات، نعم إن لنا طفلاً، نعم إن زوجى هنا أيضاً فى إيفين.

- هل تريئه أحياناً؟

- مرة فى الشهر، وبالطبع لا أستطيع أن أضمه بين ذراعى، أو يحدث شيئاً من هذا القبيل...

وضحكة صغيرة...

- إننا نتحدث قليلاً...

وألقت ميرزاد نظرة سريعة على الكاميرا، سريعة جداً، ثم استطردت دون أن تقطع حديثها:

- ولكن لا تصدق ما يقولون! إننا مرتاحات هنا... لقد قالوا لى «إنهم سيعذبونك فى إيفين»، ولم يكن هذا صحيحاً!

وبعد هذه الاندفاعة واصلت ميرزاد قصتها، كيف تستيقظ فى الصباح فى

الزنازة التي تقسمها مع خمس وعشرين امرأة، وعملها في الورشة، ودراساتها للإسلام، وقراءتها للصحف الإسلامية، ولكتب العلوم الإسلامية، هل خرجت من السجن أثناء هذه السنوات الثلاث؟

- في الصيف الماضي أخذتنا الأخوات إلى مسبح فانيك، غير بعيد من هنا. للسباحة؟ بالشادور؟

- طبعاً لا... بالميوهات، ألم أقل لك أننا مرتاحات هنا!

## قائدة

### الكوماندوز

لم أكد التقط أنفاسي حتى جلبوا لي سجنيتين أخريين، وأمر وهما بأن تحكيا لي، أو بالأحرى تتلوا عليّ، قصتهما.

كانتا تتحدثان بصوت رتيب، وعيونهما مثبتة على الأرض.

حين ألقى القبض على مريم كانت قد أنهت لشوها دراستها الثانوية وهالة قد بدأت بدراسة الطب، وبعد أن أفلتتا من حكم الإعدام خفف الحكم إلى خمسة عشر عاماً من السجن، قضيتا منها أربعة أعوام بالفعل في إيفين، كانت الاثنان عضوين في مجاهدي خلق، وهي حركة معارضة ولدت أيام الشاه، وشهدت ذروة مجدها في بداية الثورة، قبل أن يكتسحها الخومينيون في النهاية.

كانت مريم قائدة فريق كوماندوز... لا أقل... أما هالة فإذا كانت السلطات قد حرصت على أن ترينى إياها فلأنها شاركت موجان هومايونفار الشهيرة بمغامراتها، ثم زنازتها فيما بعد، وكان الحكم قد صدر على موجان بالسجن خمسة عشر عاماً، ولكن أفرج عنها بعد عامين «رحمة بإعاقته» حسبما يؤكدون لي. وقد أصرت موجان دائماً، كما فعلت أمام لجنة حقوق الإنسان في جنيف، على أنها إنما فقدت ساقها بفعل جلادى إيفين.

أما اليوم فإن صديقتها هالة، الواقفة بحذاء الحائط، تحت نظرات المدير والحراس، وضوء الكشاف الساطع يعمى بصرها، ويجعلها تبدو أكثر شحوباً وأكثر وهناً، أخذت تتمتم بصوت لا يكاد يسمع في مكبرات الصوت التي يحملها الإخوة:

- ذات يوم ونحن وحدنا أسرت لي موجان أن ساقها كسرت في حادثة سيارة.  
ماذا أصدق؟ ومن أصدق؟ هالة، لكمكنت أحب، لو سمحوا لي، أن أضمك ولو لحظة بين ذراعي.

## النافورة

### الحمراء القرمزية

١٩٩٧، منذ ما يقرب من عامين لم تعد نافورة الدماء تفيض بين مقابر مدافن الشهداء في بشتي - زهرة قرب طهران، فقد أصبح هذا الرمز للدماء التي سالت في سبيل الله، ومن أجل الثورة والحرب، عتيقاً على غير (الموضة). وشارك الصحفيون في ذلك يسانداهم فيض من رسائل القراء. والشباب الذين «ضاقوا ذرعاً بالحرب».

وهكذا صمت خريبر النافورة.. أما هن فماذا حدث لهن؟ مازالت راسخة في ذهني صورهن، وهن يرتدين الشادور ويعسكرون أمام النافورة. وأعينهن تحرق بثبات في السيل الدامي الذي يتدفق، كما تتدفق دموعهن.

١٩٨٥، كان الشاب الذي يرشدنا، أنا ودليلي، عبر المدافن يبدو لطيفاً بشكل غريب بالنسبة لأحد حراس الثورة.. لطيفاً كذلك الصباح الشتوي الذي تغمره شمس شاحبة. والسلاحف تزحف في الممرات التي تحيطها أشجار الصنوبر، والغربان تنعق كما تفعل في كل مكان في العالم.

كانت بشتي - زهرة في ذلك الحين هي رمز التضحية، مدينة موتى وآلاف الأعلام

ترفرق فوق المقابر، وآلاف من زهور الجلادايوس الحمراء تنتصب كأنها الحراب، وآلاف الصور المحاطة بالزجاج تبدو وكأن عيونها تشابك... كم كانوا صغاراً «كتائب عرائس السماء هؤلاء، الذين آثروا الحرب المقدسة على عشق النساء».

وعند مفترق طرق كانت حمرة نافورة الدماء تلتصع. وفي قلب حوض دائري كبير من الأحجار كان الماء يفيض بقوة قبل أن يهبط في تشاقل في عشرات من الشلالات الصغيرة.

ومضى دليلنا في شرحه «احتجنا إلى جهود كبيرة كي نجد اللون الأحمر الصحيح، فمرة كان برتقالياً أكثر من اللازم، ومرة كان أقرب إلى الزرقة... واستقر اختيارنا في النهاية على الأحمر القرمزي، وهي مادة تستخدم عادة في صباغة النسيج، وحتى لا يكون الماء باهتاً، وحتى يشبه الدم حقاً، عليك أن تضع ثلاثمائة جرام على الأقل في الخزان... وهذا مكلف للغاية».

واختفت المساحة التراجيدية الجادة من على وجهه، وعلت وجهه فجأة غمزة ساخرة:

- ذات يوم قلت لأحد الصحفيين الأجانب إن الدم يصل إلى النافورة من خلال شبكة مواسير تأتي مباشرة من المقابر... والغريب أن هذا الأحمق صدقني».

## الديابات

### وحسان أبيض

وفجأة مزقت الصرخات هدوء المدافن المصطنع. صرخات تنبعث من قلب امرأة تتلوى وتدور وتسقط فوق الحجر البارد الذي يفصل جسدها. وحين وقفت في النهاية بصعوبة، ونفضت بيديها حجابها المغبر، رأيت ملامحها المجهدة وعينيها التائهتين.

- قالوا لي إنه أصيب في رأسه فقلت: وهبت رأسه للإمام علي... قالوا لي إنه أصيب في قلبه فقلت وهبت قلبه للحسين الشهيد...

وغير بعيد كانت صفية سليمى، أم الشهيد رضا سليمى، تبكى هى الأخرى،  
وإنما بدون صوت... جلست على حصير بينها وبين الرخام البارد وهى تتمتم:  
-... إننى أحسه... أحس أن ولدى هنا ينتظرنى... وحين ينادينى أجيء  
دائماً... حتى والجليد يسقط.

وانحنيت إلى جانبها، قرب وجهها، ترى كم تبلغ من العمر؟  
ولم تكن هى تعرف، فسألت زوجها الذى كان يكنس القبر:  
- كم تبلغ عمرى؟

ثم استدارت نحوى قائلة:

- يقولون إننى فى الأربعين.

وتنهدت.

- أما ابنى فكان فى العشرين.

كان جميلاً هذا الابن، كما يبدو فى الصورة التى تضمها صفية إلى قلبها،  
محاطة بإطار رقيق.

- مضت ثلاث سنوات.. لقد وجدوه بعد أن قتل بكثير.. لكن الله صانه كما  
ذكر لى الضابط.. واحتفظ ولدى بكل شىء، عينيه وأهدابه وبشرته.. كل شىء!  
بل لقد كان نائماً ويده معقودتان على صدره كشهيد حق!

وانحنى صفية، وأخذت تفتش فى كيسها.

- أتريد أن تسمعيه.

ودست شريطاً فى جهاز (كاسيت).

- اسمعى صوته! هذا هو الشريط الأخير، لقد أرسله لى قبيل وفاته...

وماذا يقول؟

- «أماه... أستطيع الآن أن أموت بسلام بعد أن رأيته!» هذا ما يقوله ابنى...  
وهو الحقيقة... لقد رآه ولدى، رأى الإمام الغائب يثب بحصانه أمام الدبابات

والمكان يمتلىء بالغبار.

وأمسكت صفية بيديها مصحفاً ثقيلاً موضوعاً إلى جوار باقة من الزهور البلاستيكية، وفتحته عشوائياً، ثم أصلحت نظارتها وتظاهرت بالقراءة:  
- انظري! إنه مكتوب ها هنا، مكتوب أن الإمام يتطى حصاناً أبيض، ويمسك بيده راية خضراء، راية الإسلام الخضراء.

والتف زوجها بكوفيته وأحزانه، وبقي صامتاً، أما صفية فلم تصمت.  
- إنى أتعلم القراءة في المساء، دروس للنساء فقط، وإذا كنت أجد القوة على أن أتعلم في سنى هذا فلكى أعرف ما يريد الله منا. وأنا على استعداد لأن أعطيه كل أبنائى إذا طلبهم، فالموت فى سبيله شىء جميل، وليس كمن يقع من ترام.  
فزوج صفية يعمل (كمسارياً) فى ترام.

وداعاً يا صفية... وداعاً أيتها المرأة البائسة! عسى ألا تتفتح عيناك أبداً إلى أبعد من مصحفك... أو إلى التفسير الذى يقدمونه لك... عسى أن تظلى تؤمنين حتى النهاية بأنك واحدة من المختارات... من أولئك الذين قال عنهم قديسك الخمينى إن «شجاعتهم تصيب أقلامنا بحمرة الخجل، لأن ما تحمله من حبر لن يفى أبداً بمجد تضحياتهم».

---

على بعد

---

سنوات ضوئية

---

ومرة أخرى سرنا فى المرات التى لا تنتهى... وقد توافقت خطانا أنا ودليلتى... وأنا أشعر أن نفس الأفكار تدور فى رأسينا... إنها سلية أسرة راقية، وهذا اللقاء مع الروح الشعبية الإيرانية التى لا تعرفها جيداً يثير حيرتها، ويكاد يشعرها بالخرج تجاهى.



- اسمعى .. إننى مسلمة، أؤدى الصلوات يومياً، ولكن أمام كل هذا الاستسلام أكاد أصاب بالجنون... صحيح أن صفية إيرانية، لكنها غريبة عني تفصلنا سنوات ضوئية، أبعد حتى من أمي، التي تكاد فكرة فقد ابنها تصيبها بالجنون، وأخى في مأمن في إنجلترا، ولكن القلق لا يدعها لحظة، إلى حد أنها لا تنطق باسمه بأمل أحرق هو أنه عندئذ لن يعود موجوداً في نظر أولئك الذين يمكن أن يجدوه ويرسلونه إلى الجبهة.

وعند خروجنا التقينا بعمامتين كبيرتين، فالملاي - كأمناء الشرطة - كثيراً ما يسرون اثنين اثنين. وعباءاتهن تضيق خطاهم حين يلفونها - كما يفعل هذان - حول ركبهم.. إنهما يسيران في خطوات قصيرة مستقيمين كأشجار السرو في المدافن، تحميهما حقيقتهما، وخيلاؤهما اللانهائية.

## العقد

حائرة تائهة

منكسرة وحزينة

بوجه سافر

وبلا شادور

لا تبالى بأن يلقوا القبض عليها

ولا تأبه بالحراس

وعيناها

حبنا عنب حمراوين

سقطتا من العنقود

إنها ملثثة  
وضائعة ..  
ضائعة أمام نفسها  
وأمام العالم  
كأنها قشة في مهب الريح  
تدور حول نفسها  
جدث بلا قبر  
ميتة في نظر الجميع  
وحول رقبتها  
تتدلى بقعتان ، لعنتان  
حذاء جندي ميت  
معلق برباطه  
ما هذا ؟ سألتها  
إنه ابني ...  
الطفل المسكين  
يجلس على كتفي  
وهو يرتدي حذاءه  
سيمين بهبهاني<sup>(١)</sup>

## سيمين بهبهاني

### أعظم شاعرات إيران

- لم تكن قصيدة «العقد» من وليد خيالي.. فقد رأيت بعيني هذه المرأة التي تطوف بين مقابر بشتى - زهرة، رأيته وسمعت لوثاتها، ورأيت حذاء ابنها يتدلى حول رقبتها. وفي ذلك الحين هاجمت الصحف قصيدتي، وقالوا إنني أسخر من أم شهيد، ولا أبدى احتراماً لها... أتستطيعين أن تتصورى.

وكننت أستطيع...

وأكد لي بواب فندق «لاله» بالفعل ما كنت أعرفه، أن سيمين بهبهاني هي أعظم شاعرة معاصرة باللغة الفارسية الكلاسيكية - وتلك أيضاً سمة لإيران... بوابي الفنادق الذين يحفظون الشعر.

قد تكون السيدة بهبهاني صرحاً لكنها أكثر الصروح تواضعاً... ولكم هي كريمة.

ففي تلك الأمسية من شهر ديسمبر ١٩٩٧ كان ثلج خفيف قد هبط، والسيارة تشق طريقها في شمال العاصمة، وهي تنزل من منحدر إلى آخر حتى وصلنا إلى غابة من الأبراج الحديثة... إن مجرد ذكرى هذه الأبراج الباردة بأبائها الفسيحة تشير القشعريرة في جسدي.. وأعترف أنني لم أكن لأتصور أن شاعرة يمكن أن تعيش فيها.. فما من سحر.. ما من أثر لشيء فارسي في مناهاتن الإيرانية هذه. ولكن أي أهمية (للديكور)... إن سيمين تعيش في عالمها هي، عالم نسخته الرقيقة هي شعرها.

- الأمر بسيط.. إنني أكتب في كل مكان، وفي أي مكان. بل أحياناً ما اضطر إلى أن أوقف سيارتي، فالشعر يأتي في نفحات. وقد بدأت الكتابة وأنا في الرابعة عشرة، ولم أترك قلمي حتى الآن.

فهى بشعرها الأسود، الذي لفته حول رأسها، و(ماكياجها) الأشبه بممثلة تراجيديا، وزياها الأسود، ومجوهراتها... سيدة عظيمة، الروح عندها أهم من

تجاعد الوجه، وهي لا تخفى سنّها، فقد ولدت في ٢٨ يونيو ١٩٢٦ .  
- انفصل أبواي بالطلاق وأمي حبلى بى... إنها عالم آخر، طهران طفولتى،  
الشوارع مرصوفة بالأحجار، وجلبة العربات ورائحة روث الخيل... أقدم ذكرياتى؟  
رائحة مربيتى وهي تضمنى بين ذراعيها.

فالواقع أن سيمين جاءت من أسرة لديها مربيات.. فعباس خليلي والدها، لم  
يكن نكرة، وإنما بورجوازي كبير ليبرالى... ذو أفكار تقدمية، وكان أول كاتب  
إيراني ينغمس في كتابة الرواية الاجتماعية... إن لم نقل الاشتراكية.. كما كان  
نصيراً للمرأة... إلا حيشما يتعلق الأمر بنساء أسرته.

- وحين بلغت السابعة عشرة زوجنى لصديق له يماثله في أفكاره السياسية..  
زوج مهذب بلا شك، لكن سنّه كان ضعف سنّى، وكنت أحبه كأخ ولا أكثر.  
ولم تستطع سيمين أن تختار حياتها إلا بعد سنوات، بعد أن طلقت وكبر  
أولادها الثلاثة.

- توفي زوجى الثانى.. ويعلم الله كم كنت أحبه، وفي ذلك الحين كان أسلوبى  
رومانسياً، كنت أغنى للحب، وللرغبة، ولدموع الانتظار... إلى أن جاءت الدموع  
الحقة: الثورة والحرب والعنف والإعدامات، ونفذ هذا كله إلى شعرى، وبدأت  
أتكلم، وأندد بهذه السنوات الدموية.

ومنذ أيام الشاه كانت الرقابة تتسلل إلى بعض أشعار سيمين معتبرة إياها  
إباحية، وهاهى السلطات الإسلامية تتهمها بدورها: إن بهبهانى تضعف معنويات  
الأمة، بهبهانى تبذر الشك في كمال الإسلام، في قيمة الثورة والحرب. وهكذا  
أخذوا يقطعون، ويحذفون، ويحظرون، ثم يرفعون الخطر، ويعيدونه ثانية من  
طبعة إلى أخرى. ألم يظل أحد كتبها ممنوعاً طيلة اثنى عشر عاماً؟

## ألف طريقة

### للسمع

- لست على ثقة، فقد كانت هناك عصابة على عيني حين اقتادونا، ربما إلى

سجن إيفين السياسى؟ وفى غرفة بلا نوافذ وضعونا طيلة الليل . وحين طلع النهار دفعونا فى السيارات ، وساروا بنا مرة أخرى إلى واحد من أكبر شوارع طهران ، وهناك رفعوا العصابت عن عيوننا ، وتركونا على الرصيف ، أناس غريبون ، بل إن أحدهم قال لى : «أنا أعرفك يا سيدتى»... وقد حضرت إحدى ندواتك . وحين سمعته يقول ذلك دارت فى ذهنى فكرة أن هناك ألف طريقة للاستماع... وأنت يا عزيزى حين جئت لم تكن قد جئت لتصفق !

وقعت هذه الحادثة فى عام ١٩٩٧ ، أى منذ أقل من سنة من مقابلتى مع سيمين .. كان الملحق الثقافى لإحدى سفارات أوروبا الغربية قد دعا عدداً من الكتّاب الإيرانيين إلى منزله حين دهمته «عناصر غير منضبة» ، وقبضوا على الضيوف بوحشية ، أمام النظرة العاجزة للدبلوماسى - الذى اضطرت السلطات الإيرانية إلى تقديم اعتذار رسمى له فيما بعد .

لم يشفع للشاعرة سنّها ولا شهرتها الواسعة فى أن تحميها تلك الليلة من هذه الأحداث الكافكاوية التى كانت قد أفلتت منها حتى ذلك الحين .. أما عن هذه اللحظات فإن سيمين قصتها على اليوم بقدر من اللامبالاة ، ربما كان مستمداً من أمل يائس .

- رئيسنا الجديد محمد خاتمي... إن أحداً من أسلافه لم يتحدث أبداً مثله... إنه يتحدث عن دولة القانون ، والقضاء على العسف... ومنح السلطة للمجتمع المدني... فلعل كل هذه... هذه الأشياء الرهيبة ستختفى قريباً؟

## المساء

إذا كان جمال الليل عبثاً

فلماذا هو جميل ؟

ولمن هو جميل ؟

فالليلة

يتدفق فيض النجوم بارداً

والنسوة غارقات فى النحيب

وشعورهن الطويلة مفكوكة على أكتافهن

والضفادع تغنى

أغنياتها التى تقطع الأنفاس

وتعيد الذكريات

فى نحيب لا ينتهى

حتى الفجر

تقطعه جوقة من اثنتى عشرة رصاصة ...

إذا كان جمال الليل عبثاً

فلماذا هو جميل ؟

ولمن هو جميل ؟

أحمد شاملو (٢)

كم من ليال كهذه قضاهما الشاعر فى زنزاته !

- أذكر تماماً اليوم الذى نظمت فيه هذه القصيدة .. فى عام ١٩٥٩ .. أجل حتى فى السجن ! ماذا أستطيع أن أقول ؟ الشعر هو حياتى .. الشعر هو الذى يدفعنى إلى أن أكتب .. هو الذى يحولنى إلى شاهد .

كان أحمد شاملو - الذى يعتبر أعظم الشعراء الإيرانيين المعاصرين - فى الثانية والسبعين حين لقيته فى منزله فى كاراج ذات أمسية حارة فى يونيو ١٩٩٧ . فيلا فاخرة فى شارع فسيح تحيطها أشجار ضخمة مرتعشة . ورغم أن خلف شاملو تاريخاً طويلاً من التمرد فإنه لا يعيش حياة شاعر لعين : فالأضواء الخافتة تنعكس

على سجاجيد رقيقة، ومقاعد إنجليزية من الجلد الأحمر، وتحف من الفن الإيراني الكلاسيكي، ومن الفن الحديث، بل ومن الفن شديد الحداثة لا تعرضها أبداً المتاحف الرسمية المحلية.

- إن كل هذه اللوحات والتماثيل والرسوم هدايا.. ولدى من (البورتريهات) ما أنوء به، ولا أعرف أين أضعها.. مما يثير ضيق أصدقائي الفنانين.

وتطفح مكتبة الشاعر بكتب المؤلفين الإيرانيين، لكنها تضم كذلك مايكوفسكى وجارسيا لوركا وبريفيرت وأراجون وإيلوار وأبولنير.

ويوم أن زرته كان شاملو يتعافى من جراحة خطيرة أجريت له حديثاً، واستقبلنى وهو مستلق، وشعره الأبيض الكثيف يختلط ببياض الخدات، وكانت زوجته عايدة قد أنزلت السرير إلى الدور الأول ونصبته فى الصالون. عايدة.. حبه الكبير، وإذا كان القرن العشرون قد شهد فى فرنسا أراجون والزأ فقد شهد فى إيران شاملو وعائدة.

ألمسك فأكتشف العالم

أفكر فيك

فألمس الزمن العارى

المتوقف اللانهاى (٣)

إن من المثير دائماً أن تلتقى زوجة شاعر، أن ترى بعينيك المرأة التى ألهمت كل هذه النغمات وهذا الحب، كانت عايدة التى ترعى زوجها وتحمى أعماله بحرارة تصغر حبيبها كثيراً.. والرقه فيما بينهما تكاد تلمسها بأصابعك.. فى كل نظرة، وكل إيماءة.

وأخرجت قلمى ودفتري، ودفعت مقعدى إلى جوار سريرى، وأنا أشعر بقدر من الحرج لهذا القرب، ورحت أتأمل وجهه الوسيم المنهك.  
- نعم.. لقد كنت وسيماً وأنيقاً وساحراً.

(٣) نقلاً عن الترجمة الفرنسية بقلم بارفيز خازارى.

وجه مازالت تحيا فيه عينان داكنتان .. رجل بالغ الحساسية، أدار ظهره إلى  
أشعار الأمس الكلاسيكية التي يعتبرها شديدة الضيق في أسلوبها، ورومانسية  
وخاوية أكثر مما يجب .. وكنصير للحرية كان أيضاً يدافع عن الشعر الحر:

أن تعيش

في صرخة

أن تنتفض كنافورة

مياه أرضية

تتذوق

الحرية (٣)

ولعل الأمر الأكثر إثارة للدهشة هو أن شاملو، في هذا الوقت الذي يضع الدين  
بلاده في قالب، يجسر على أن يدع الأرض تقول:

يا أيها الإنسان، يا ملك روحي،

قبل أن تتقبل مكفوفاً عبودية السماء

وتبلى رأسك فوق حجر المصلى

وتعقد ذراعيك في خضوع أمام صدرك

فإنني أنا الأرض، جارية حبك،

المليئة بالحياة والخضرة،

كنت أحكم في بهجة (٣)

إن الرسالة واضحة، مفهومة لدى الوهلة الأولى، لكن كثيرين لم يكونوا في  
جسارة شاملو:

- حين تقابلين فنانينا سيكون عليك أن تنفذى إلى ما يختبئ خلف سائر الدخان  
التي يحمون بها أنفسهم، خاصة وأن الرقابة قد ازدادت تشدداً بعد الثورة. إن  
رقبائنا غدوا أقل حذراً، لا يدفعهم سوى التعصب الديني وحده. وفيما مضى كانوا  
يكتفون بحذف بضع عبارات أو صفحات من كتاب ما، أما اليوم فإنهم يحظرونه



ببساطة .

وتنهذ ثم استطرده قائلاً :

- ومن المؤسف أنه لا جديد في هذا حقاً ، ولعل الشعب الفارسي هو أكثر الشعوب حباً للشعر .. لكن أشعاره جواهر يصقلها الرقباء .. منذ قرون وقرون ، وحتى شاعرنا الكبير حافظ تعرض لطغيانهم ... ولقد استبطنا الرقابة حتى غدت جزءاً من كياننا ، من إبداعنا ، ولكن مهما التففنا ودرنا ، مهما صقلنا استعاراتنا ، مهما كانت مستويات المعاني التي نضيفها على قصائدنا ... فإن هذا لن يعفينا من أن نمر بنفس .. الحنة .

وهكذا ألقى القبض على شاملو للمرة الأولى في عام ١٩٤٢ حين كانت القوات البريطانية والسوفييتية تحتل إيران .

- حتى في صباى كنت وطنياً متحمساً .. وفي المدرسة كنت أختنق ... ومنذ أن تعي ذاكرتي وأنا أنظم الشعر ، وسرعان ما أصبحت صحفياً .

ثم ماذا ؟ ثم تلك الإجابة المألوفة لشاعر «يمسك في قبضته بسخط الشارع» :

- ثم استمررت ... ماذا تريد أن أقول لك ؟ إننى فوضوى ، مثالى ، أحارب دائماً ضد الأقوياء ، ويلقى بي دائماً فى السجن ، وأشعر دائماً بالخوف من أن أعدم ذات يوم .. لقد عانيت كثيراً .. لكن لو أننى عشت حياتى ثانية فلن أتردد لحظة ، وسأبدأ جنونى من جديد .

## الطريق

## إلى قم

تحت أضواء الفجر الذهبية يمتد الطريق السريع بين طهران وقم ، طريق سريع ككل الطرق السريعة الأخرى ، ببوابات المرور ورائحة محطات البنزين ، وحولنا من كل ناحية تمتد فارس ، وهنا وهناك ترتفع أشجار الحور النحيلة ، وأشجار الصنوبر

كأنها مظلات، وعلى طول الطريق مزارع الشجيرات التي تشبه حين ترى من بعيد  
اللقى النابتة التي انتشرت في إيران مع (الموضة) الإسلامية.

ومرة أخرى تنبعث أمامي عند الأفق، لامعاً فوق الأرض البنية، الذهب... ذهب  
القباب... ذهب مساجد بشتى -زهرة، حيث شهدت مبهورة منذ فترة حمى  
الذكرى الثامنة لوفاة الخميني.

ثم مضى حلم الذهب، لتحل محله مساحة من التلال تغطيها علامات غريبة  
بالطلاء الأبيض: كلمات وأرقام رسمت على الأرض الصخرية لتبين مواقع مختلف  
الوحدات التي جاءت للتدريب في هذه البقعة العسكرية الشاسعة المفتوحة أمام  
الرياح، وأسماء الوحدات تحمل معان مزدوجة، دينية وعسكرية، مثل فرقة «ذى  
الفقار» التي تحمل اسم سيف الإمام على ذى الحدين، وإلى جواره صورة ضخمة  
لهذا السلاح المقدس.

وعلى طول الطريق شجيرات مغطاة بالغبار تحمل أزهار الغار، وهنا بوسع  
المسافرين أن يستمتعوا بقدر من الراحة، وأن يزاوجوا، بفضل المساجد القشبية  
التي أقيمت خلف محطات البنزين، بين هدير المحركات ونغمات الإيمان العذبة في  
قلوبهم.

لكن رضا لم يكن اليوم يبالي بكل هذا الجمال، بالعكس كان يقطع بسرعة مائة  
كيلو متر في الساعة الأرض المنبسطة المصبوغة بالملح من البحيرة القريبة، فقد كان  
علينا أن نسرع إذالم نرد أن نصل متأخرين إلى المدينة المقدسة.

- قم... مصنع الملالي الكبير... هكذا كان رضا يصيح للرياح الساخنة التي  
تندفع من النوافذ، ولنا نحن زبائنه المكومين في المقعد الخلفى لسيارته العتيقة، ثم  
يضيف.. لكن قم ليست من أجل هذا أفضل... ففى قم مساجد كبيرة، لكن  
المساجد الكبيرة لا تعنى دائماً قلوباً وعقولاً كبيرة.

وفيما بعد رجاني رضا (وهو اسم مستعار) ألا أذكر أبداً اسمه الحقيقي، لو أننى  
خاطرت بذكر ملاحظاته الساخرة في كتاباتى.

## محظور على

## النساء الغناء

أما الآن فقد كان رضا ينتهز فرصة الطريق الواسع ليضع أشرطة الغناء واحداً بعد الآخر في جهاز الكاسيت، رافعاً بقدر ما يستطيع صوت هذه الأشرطة الأجش لأنها أديرت مئات المرات، وأخذت السيارة ترتعش بأصوات نسائية ثاقبة تساندها نغمات القيثارة.

... وأخيراً هاهو الشرق مرة أخرى..

فكما يحظر الرقص والراقصات حظرت المغنيات منذ الثورة، إلا في جلسات خاصة... واختفين من الإذاعة والسينما والتلفزيون... وذات مرة سألت أحد باعة الشرائط في شارع انقلاب (الثورة) في طهران حين لم أر أى صورة لامرأة على أغلفة الشرائط، فتململ حرجاً وقال «ماذا تريدان؟ هذا هو الوضع...» وسألته لماذا لا يظهر في هذا (الأفيس) عن كبار عازفي الموسيقى الكلاسيكية الأوربية المعاصرين سوى رجال؟ مضيضة في خبث أن عازفة البيانو أو القيثارة تعزف بأصابعها لا بصوتها فأجابني «لا تبحتني عن تفسير يا سيدتي...».

كما لم أجد أبداً صوراً لنساء، اللهم إلا بضعة تخطيطات غائمة نادرة، على أغلفة الكتب التي تملئ بها المكتبات في العاصمة وخارجها... فالإيرانيون يقرأون كثيراً.

وطمأننى صديقى مصطفى الذى كان بصحبتنا إلى قم قائلاً:

- يقال إنه بعد وصول خاتمي إلى السلطة صرح لمغيتنا الكبيرة سيمايينا بأن تغنى علناً.. حسناً.. علناً بطريقة ما... في صالون مغلق، وللنساء فقط.

وعقب رضا مردداً مرة أخرى ما سمعته من قبل كثيراً:

- يقول معممونا أن غناء المرأة ضد الإسلام لأن صوتها يجتذب الرجال

كجنابات البحر...

ومنذ قدومى إلى الجمهورية الإسلامية للمرة الأولى أحسست بهذا النقص ... وبلا وعى كانت أذنائى تبحثان ... فالحق أنه دون أصوات النساء الرتيبة التى تصخب فى الأسواق فى آلاف أجهزة الترانزستور الصارخة لن تكون أى مدينة فى الشرق شرقية حقاً .

- وهكذا فإننا نستمتع لهن سراً، نساء مثل باهستى وشاكيلا وخوميرة اللاتى أسمعتهن إياهن للتو، إنهن بلا بل حقاً، أليس كذلك، لقد غادر الثلاثة إيران، وتأتينا شرائطهن من أمريكا، وأنا اشتريتها من السوق السوداء .

شرائط من كل نوع، وأفلام أجنبية فى الفيديو، كل شئ إلى إيران، وليس سراً أنه خلف واجهة البلاد المتقشقة تعيش السلع المهربة فى إيران، كما تعيش السمك فى الماء - «فما أن يخرج شريط جديد لمايكل جاكسون فى الولايات المتحدة .. حتى تجديه فى إيران بعد يومين» .

ولكن فلنعد إلى مصطفى الذى رأيتنه يتحرك فى انفعال على المقعد الأمامى، مصطفى الذى استدار نحوى، ثم انفجر قائلاً:

- حسناً ... إننى أيضاً أغنى ! بل لقد غنيت ذات مرة أمام شقيق على خامنئى مرشدنا الروحى !

وانطلق الفنان، صوت جميل دافئ ملئ بالشجن، وإنما أيضاً بالحياة والألوان ... ذكرى لإسلام أكثر إقبالاً على الحياة، كاد أن ينسى .

- ليس مسموحاً لنا فى العلن أن نغنى إلا بحب الله .. لماذا؟ إننى أسألك أى شر فى أن نغنى للحب الأرضى؟ خاصة وأن أشعارنا الفارسية جميلة جداً، ولا سيما القديمة، وهكذا فإننى أعش قليلاً حين أغنى، وأدس بعضها هنا وهناك، بل لقد تجرأت وأدبت بعض الإيقاعات والأصوات الحديثة ... فماذا تظنين قد حدث، لقد أحب الجميع ارتجالاتى .. حتى الملأى .

ومضى مصطفى يقول:

- كان هذا انتصاراً ضئيلاً .. فليس مسموحاً لنا إلا بالقليل من المتع .

## «مصنع الملالي»

وأخيراً بدت قم، وقم مدينة جافة، أمام خلفية صحراوية، تمتد على ضفاف نهر جف منذ أمد طويل، تظللها هنا وهناك ميادين صغيرة.. قم حيث الهواء في الصيف حارق.. ومع ذلك تطفه اللوحات الضخمة المرسومة على الجدران في كل مكان، تحييك وأنت تمر... بحيرات وسيول وقمم ثلجية تذكرني بوطني، ولكن منذ الذي يتحدث عن الحر في قم؟ إن الشادورات الخانقة، الخالصة الجافة، والأكثر سواداً من السواد، تملأ الطوار، وبالطبع العمائم والقفاطين الطويلة والعباءات النبيلة واللحى الكثية، وبدت لي صناديق الفقراء هنا أكثر من أى مكان، تلك الصناديق التي تنتصب في الشوارع، تعلوها زهرة معدنية حمراء كبيرة، زهرة العقيدة الشيعية الحمراء.

ففي عام ١٩٨٠ نشبت الحرب بين إيران والعراق. ومنذ ذلك الحين ظلت النجف وكربلاء، أهم مزارات الحج الشيعية، مغلقتين أمام المواطنين الإيرانيين لأنهما تقعان في الأراضي العراقية. وتردد الشائعات أن وصول الرئيس خاتمي إلى السلطة في عام ١٩٩٧ أعقبه انفتاح غائم مع بغداد، وأن بعض الحجاج الإيرانيين لجأوا في التسلسل إلى العراق، وعلى أى حال فقد كان على الإيرانيين طيلة سنوات انتظار فتح الحدود هذه أن يقنعوا بالحج إلى المزارات المقدسة الأخرى، وقم واحد منها، قم التي ظلت منذ عام ١٩٦٢ موطن النشاط السياسي الإسلامي، نشاط ملتهب شارك فيه محمد خاتمي بنفسه بحماس أيام شبابه.

إنها «مصنع الملالي الكبير» على حد قول رضا. وهي واحدة من أكبر مراكز الإسلام الشيعي.. مدينة جامعية كبيرة: فالمساجد والمكتبات ومدارس تحفيظ القرآن.. تعلم طريق الله.. وهم يأتونها من كل مكان، وهكذا التقيت بمحمد بقليل من إسلام آباد بباكستان... ثلاث وعشرون سنة.. وأسنان سليمة جميلة.. فقد كان لا يكف عن الابتسام.. إلا أنه رفض أن أصوره.

ومحمد في العام الخامس من دراسته، وله الحق في ارتداء عمامة بيضاء، فسلم الدرجات الدقيق يضع سبع درجات، أعلاها هي آية الله - عظمى مرجع.

كنت ذلك الصباح أجزر قدمي وسط الحشد، وعيناي تدوران من حولي، على الشللدورات والعمائم، والشباب بلحاهم الإسلامية يبدون على (الموضة) بسر او يلهم المضلعة وأحزمتهم المعدنية السميكة، وقمصان مفتوحة تحت (بلوزات) سوداء من الجلد الصناعي، وعلى دائرة المحلات المحيطة بالمسجد الكبير، حين وقعت عيناي عليه، كان محمد جالساً في مرح مع رفاقه الطلاب الباكستانيين في قلب أحد المقاهي.. مقهى فقير مضاء بالنيون، لكنه نظيف لامع.. على شاكلة البلاد كلها في واقع الأمر: فجمهورية إيران الإسلامية... بلاد ترقص فيها الفوط والمكانس... ففي كل مكان تلتهم عبر شوارع المدينة (الجاكتات) البرتقالية التي يرتديها الكناسون وجامعو القمامة... أما المتسولون فأين هم؟ لعلمهم مضربون!

---

## آلاف من

---

## الطلبة

---

في مواجهتي جلس الباكستانيون يحتسون الشاي في هدوء، بعد أن صبوهُ في الأطباق حتى يبرد، وأخذوا يتحدثون، ويتسمون، فالحياة جميلة، والدراسة مجانية، ويحصل كل منهم على أربعين دولاراً كل شهر كمصاريف جيب.

وكم عدد الطلاب الذين تضمهم جامعتكم؟

- آلاف... ماذا تتصورين... من أكثر من خمسة وخمسين بلداً، أغلبهم من العرب والأفغان، وغيرهم كثيرون أيضاً.. حتى من اليابان.

وعلق مصطفى بصوت قاطع:

- ذلك أن حكومتنا تبذل جهوداً كبيرة لنشر عقيدتنا في العالم كله.

ثم غيّر رفيقي العابر لهجته، وقال وومضة من المشاغبة تلتهم في عينيه

- من يعرف.. ربما وصلت حتى لديكم.. حتى بلادك يا سيدتي؟

وانطلق الجميع ضاحكين، إن هؤلاء الباكستانيين، مرحون حقاً، وهم ينظرون

## صور حية من إيران:

لى فى عينى رغم أنى امرأة، وهكذا خاطرت بأن أسأل محمد بضع أسئلة نسائية:  
- عمامتك البيضاء هذه.. كم يبلغ طولها؟ ورفعها عن رأسه كما ترفع القبعة  
وقال:

- هاهى.. المسيها.. انظرى كم هى صلبة، إننى لا أعقدها سوى مرة فى الشهر،  
ألف أمتار القماش السبعة حول ركبتى.. إنها طريقة معقدة.  
- ولحيتك؟ أهى إجبارية؟

- نعم.. إن هذا هو الدين.. وفى مدرستنا بعض الصينيين الذين لا تنبت لهم  
لحى، ثلاث شعرات بالكاد.. لكن الله يحبهم بدورهم... تماماً كما يحب  
رافسنجانى رغم كل شىء.

وهكذا... فأما الطبيعة هى المسئولة عن اللحية شبه الجرداء لآية الله القوى  
هذا ورئيس الجمهورية السابق.

## زواج

### حسب الطلب

وعدنا إلى الشارع، يا للغرابة.. ماذا تصنع هنا هذه الصورة الباهتة لشاب  
بعمامة شاحبة بين كل هذه الألوان الزاهية للأردية الشيعية؟  
قال لى البائع فى نشوة:

- إنه النبى محمد فى سن الثامنة عشرة، النبى كما رسمه منذ عهد بعيد رسام  
إيطالى حسبما يقولون. وقد كانت هذه الصورة لدى الإمام الخمينى الذى سمح  
باستنساخها - باركه الله - لصالحنا جميعاً.

أمر مذهل! لقد كنت أعتقد دائماً أن الإسلام يحظر بشدة تصوير النبى.

وثمة صورة أخرى مثيرة... حية هذه المرة.. هذا الملا الذى يتكىء على (بنك)

محل للعطور، هذا الملا الوسيم ذو التقاطيع الجميلة والرموش الطويلة يستنشق رائحة زجاجة بعد الأخرى، غافلاً عن كل العالم المحيط به لأنه منغمس في نشوة في عالم الياسمين والليمون ...

وعلى مبعده كانت امرأة شابة تلح في انفعال على أحد الملالى بأسئلتها. واقترب مصطفى لسمع ما تقول.

- إنها تتحدث بإصرار، وتقول إنها بحاجة إلى ورقة يوقعها الملا ... زواج متعة لمدة يومين ... لا بد أنها عاشقة أو أنها بحاجة إلى المال.

وشرح لى مصطفى عندئذ زواج المتعة، أو الزواج المؤقت، وهو طقس شيعى بحت.

- بحكم زواج المتعة، الذى يمكن أن يعقد لمدة ساعات أو يوم أو أسبوع أو شهر أو أكثر، أى للفترة التى تريدها، يمكن للرجل والمرأة أن يمارسا الحب دون خطيئة. ويجب أن تبلغ المرأة الثالثة عشرة على الأقل. أما الرجل فيمكن أن يكون متزوجاً أصلاً، وهو الذى يدفع دائماً.

ويرجع زواج المتعة إلى عهد بعيد، ويقال إنه مازال يمارس اليوم فى بعض البلدان الإسلامية غير الشيعية مثل العربية السعودية. واسم المتعة نفسه واضح بذاته. وفى البداية كان هذا الزواج المؤقت قاصراً على الرحالة، وليس من قبيل المبالغة أن نقول إن القبائل البدوية والتجار العرب والخابرين المسلمين كانوا يتنقلون كثيراً، وهكذا بفضل زواج المتعة كانوا يستطيعون ممارسة الحب دون إثم.

وقد كان الزواج المؤقت ممنوعاً أيام الشاه، لكنه عاد بقوة بعد الثورة، وقد شجعت العودة إلى المصدر، وكذلك الوحدة - المالية والعاطفية - التى تحياها أرامل الحرب.

والصورة المثلى لعقد زواج المتعة تحوى مبلغاً من المال يدفعه الزوج لامرأته أو عائلتها وقت التوقيع. كما يتعهد الرجل برعاية الابن الذى يولد عن هذا الزواج.

ويقول مصطفى ساخراً:

- لكن الكمال ليس للبشر، فأنا أعرف كثيراً من البائسات اللاتى خدعن .. أما ملاتنا الأعزاء فمن السهل عليهم أن يتزوجوا أكثر من امرأة لأنهم يعرفون كل القوانين ... وكل الشغرات.



## الفقيهات

رغم المظاهر فإن الله لا يخاطب الرجال وحدهم، ومن هنا جاء موعدى لزيارة جامعة الزهراء للفقهاء، التى تقتصر على النساء، وفى مكان ما من قم يوجد المكتب الذى يمكنه أن يختم رسمياً التصريح الذى لابد منه لكى أتمكن من زيارتهن.

ولكن أين يوجد هذا المكتب؟ عبر رضا الجسر الذى يجتاز ما كان ذات يوم بعيد مجرى نهر وغدا الآن فراغاً مليئاً بالتراب، وأخذ يدور بمنة ويسرة، ضالاً وسط هذا التيه من الجدران العالية، قبل أن يصل فى النهاية إلى فناء تجرى فيه عملية تجديد واسعة. وفى نهاية الفناء يقف بناء صغير يحمل لافتة: مكتب الهجرة.

وإذا حكمنا بالطابور الطويل المصطف أمام المكتب فإن عدداً ليس بالقليل يهاجر، أو يعتزم أن يهاجر، من مدينة قم الطيبة، وجلس ملا صغير، لم تكد لحيته تنبت بعد، فى صبر ينتظر دوره، على الأريكة الوحيدة الموجودة فى الغرفة وظهره إلى الحائط. كان الشاب النحيل يبدو مسحوقاً، بفعل الحياة، وبفعل تلك النظرة الضخمة والعامة.. ترى أهو بدوره يريد أن يهاجر؟!

وباختصار وجدنا أخيراً طريقنا إلى هؤلاء النسوة الغارقات فى حب الله هؤلاء النسوة المحيرات، هؤلاء الأخوات وعلامات الاستفهام فى آن واحد. ولكى نصل إليهن كان علينا أن نسير طويلاً بحذاء ضفة النهر، ثم نعبر تحت رواق كبير يقود إلى عالمهن المغلق.. إنه عالم جميل، بمبان مزينة بالموزايكو اللازوردى وسط بساتين رائعة، وإن كان - على حد تعبير بودلير - عالماً بلا ترف، بهدوء لا جدوى منه، ولا أثر لأى نشوة.

## خلف

## الستار

خلسة ونحن نمر، ورأيت مطوياً فى أحد الأركان ( بارافان ) عيادة طبية يقوم على مواسير معدنية، ويغطيه قماش أبيض: يختفى الأساتذة الرجال خلفه وهم يلقون محاضراتهم، ولا تبدو منه سوى أقدامهم الكبيرة.

وثمة ستارتان منزلقتان ثقيلتان تمتدان حتى الأرض تعزل مقار النسوة، واقتربت مرافقتى وألصقت أنفها بكتل القماش اللامعة الملونة وهمست بكلمة السر، وسرعان ما بدا وجه امرأة من بين طيات القماش.

وهمست لى: تعالى!

وانفرجت الستائر وعادت إلى مكانها خلفى، وبدأت أمامى ممرات كثيرة يرتفع فيها وقع أحذية النساء وحفيف الأحذية، وأمامى كانت تسير دليلى حين سدت طريقنا فى منتصف الممر مجموعة من النساء يتناقشن بحرارة.. كانت المناقشة حامية، تدور مرة أخرى حول انتخاب الرئيس خاتمي المفاجئ، الذى كانت النساء والشباب يؤيدونه بحرارة.

- أنتن أيتها الفقيهات، لمن أعطيتن قلوبكن؟ لخاتمي أو لخصمه المحافظ ناطق نورى؟

وتحركت الأحذية، ثم ارتفع صوت من بينها

- إن كل الإيرانيات من بيننا قد أدلين بأصواتهن.

- لمن؟

- الله يحبهما هما الاثنان.

حكمة الإسلام

توحدنا جميعاً

لكن مديرة المؤسسة كانت فى انتظارى ومعها عدة نساء أنتقين لهذه المناسبة،

## صور حية من إيران

ورأيتهن من بعيد وهن ينظرن لى من نهاية الممر وأنا أدنو منهن . وصافحتهن جميعاً ، حيث استقبلننى بتحيات غامضة وابتسامات مبهمة ، وأخذن يجمعن حولهن كتل القماش اللاتى يرتدينها ثم جلسن أمامى على الجانب الآخر من مائدة طويلة مغطاة بالشمع ، وتشرق فوقها باقة مقتطفة حديثاً من الورود الحمراء . ووفقاً لتقاليد الضيافة الإيرانية الرقيقة كانت الأطباق الممتلئة بالفاكهة التى أجدها دائماً موضوعاً أمامى فى إيران : التفاح والكمثرى والخوخ والمشمش ، أهرامات ذكية الرائحة تخرج منها عناقيد العنف ، تحليها شرائح من البطيخ على شكل نجمة .

وأخرجت كاتبة الجلسة أوراقها وأعدت قلمها . وفى اللحظة نفسها جلس ملا شاب صامتاً ، وإنما بعيد عنا عند الطرف الآخر من المائدة . كانت شفاهه وردية مليئة ، وعيناه - تحت رموشها الطويلة الطفولية ، منكستان فى خفر ، فمحظور عليه أن ينظر بهما إلى امرأة ، ولكن ليس محظوراً عليه بالطبع أن يصغى بعناية .

ستقوم زينب بالترجمة فيما بيننا ، إنها فى التاسعة عشرة من عمرها ، وقد جاءت منذ عامين فقط من غويانا البعيدة حيث أربعون بالمائة من السكان من المسلمين كما قالت لى . كانت بشرتها سوداء كنعابها ، ولكن ينبعث منها شىء أكثر استرخاء وأكثر مباشرة وبهجة من رفيقاتها الإيرانيات . وحين عبرنا الحدائق فيما بعد فتحت شادورها لحة وهى تضحك إذ ترى بلوزتها المفتوحة الصدر وسروالها الوردى المختفيان تحت الشادور .

- لماذا اخترت إيران ؟

- لأنها البلد الوحيد الذى يطبق الإسلام بكل نقائه . لقد زار والدى إيران قبلى وأحبها كثيراً حتى أننى أسرعت بعد عودته لطلب الالتحاق بالدراسة هنا . وكان من حسن حظى أنهم قبلونى .

فالتواقع أن النساء يتدافعن لدراسة الفقه فى قم . ويزداد عددهن كل سنة ، ولكن عشرين فى المائة منهن فقط هن اللاتى يقبلن ، ثم بعد أربع إلى خمس سنوات من الدراسة يعتبرن مؤهلات للتدريس ..

حين لا يوقف تحليلهن زواج إجبارى .

وتنهدت زينب وهى تقول « لو رأيتهن وهن يغادرن .. إنهن لا يتوقفن عن البكاء » .

## صور حية من إيران

وتقوم بتمويل الجامعة المؤسسات الدينية القوية التي أقيمت في زمن الخميني، ومن ثم فإن هذا الكنز من المعارف لا يكلف الألف وخمسمائة فتاة اللاتي تقمن في الجامعة شيئاً.. وأصغرهن في السابعة عشرة، وغالبيةهن العظمى من الإيرانيات، لكن نطاق المدرسة واسع، فهي تجتذب طالبات من أكثر من ثلاثين بلداً. من آسيا مثل باكستان وماليزيا، ومن إفريقيا مثل الكونغو وغينيا وكينيا، ومن أمريكا الجنوبية مثل زينب القادمة من غويانا، ومن أوروبا أيضاً.

وقالت المديرية، وهي امرأة صغيرة الحجم ترتدى نظارات، رقيقة، في الأربعين من عمرها، أو ربما في الخمسين، فكيف تستطيع أن تعرف تحت كل هذا (الكاموفلاج)؟

- عموماً من بين المسلمين الذين استقرت عائلاتهم في إنجلترا أو فرنسا أو السويد أو ألمانيا أو غيرها وفي الآونة الأخيرة استقبلنا كثيراً من البلغاريات، ومن البوسنة، وكلهن سعيدات بأن يستعدن هوياتهن في الإسلام.

وللإيرانيين وجود قوى في يوغوسلافيا السابقة، حيث يقومون ببناء وتمويل كثير من المساجد في البوسنة المسلمة التي مزقتها الحرب الأهلية. وفي هذا الجو تجرى احتفالات في ساراييفو تنظمها طهران، لإحياء ذكرى الصوفيين الإيرانيين العظام، يتحدث فيها سفير إيران شخصياً.

وأضافت المديرية «وهل تعرفين؟ إن بعض طالباتنا ممن تحولن إلى الإسلام، وبينهن عدد، وإن يكن قليلاً، من مسيحيات أوروبا الغربية... أما عن تلميذاتنا من عائلات مسلمة سنية، أو غير شيعية، فليس في هذا مشكلة، لأن حكم الإسلام توحيدنا جميعاً».

## مسيحية حقاً؟!

وبعد هذه الكلمات القوية لزمّت الصمت، وأخذ جهاز التكيف يرتفع وسط صمت ثقيل.. ماذا أقول؟ إن المائدة التي تفصل بيننا كبيرة، ونحن ننتمي إلى

## صور حية من إيران:

كوكبين مختلفين .. أن أمد يدي .. لم أود أن أمد يدي إليكن جميعاً .. وأن ننسى للحظة أننا تحت رقابة شديدة، وأن نتبادل المشاعر، ونضحك معاً .. وربما نقارن بين حياتنا، ونواجه حقائقنا .. وماذا أستطيع أن أقول عن حقائقى أنا؟ ...

وفجأة انطلق سؤال من شادور آخر، لعلها كتمته طويلاً.

- لورانس، هل أنت مسيحية .. أو شيئاً آخر؟

إن الكلمة لن تنطق أبداً لكن المعنى واضح ووضوح الأفكار التي تجرى في ذهني . اطمئن ياسيداتي، فأنا لست يهودية، والصهيونية ليست على هواي، وأنا لا أغازل دولة إسرائيل .

- إننى بروتستانتية .

وتساءلت المديرة بدورها :

وهل تعتقدين أن كل هذا .. قم مدينتنا المقدسة ومدارسنا، وحياتنا المنغمسة تماماً في الإسلام .. هل تعتقدين حقاً أن كل هذا يهم قراءك، لديكم في أمريكا ؟  
- أنا لست أمريكية .

وأخذت تعدل مرة أخرى الشادور الذي لا يكف عن الانزلاق عن رأسها، وتلك حركة تقوم بها النساء هنا مائة مرة في اليوم .. واستغرقت محدثي فترة طويلة عن عمد في هذه الحركة .. لسبت أمريكية ؟ وكنت أشعر بحيرتها .

## تجدد

أما ساكورة فإنها زنجية أمريكية حقاً، لجأت كمسلمة إلى إيران مع أستاذها الذي تزوجته، « كى أهرب من بلد عنصري، بلا روح، لا شيء غير المال والجريمة والجنس، أو تلك المسلسلات التافهة مثل دالاس وديناستي » .

- ثورة إسلامية حقاً .. دولة تقوم على الإسلام حقاً، لقد خلب هذا لبنا على الفور . ولن ننسى أبداً زيارتنا الأولى، كان هذا منذ سبعة عشر عاماً، بعد الثورة

مباشرة، ثم عدنا بعد ذلك عدة مرات، إلى أن جاء اليوم الذي صحبنا فيه أطفالنا وقررنا أن نبقي هنا.

وبالنسبة لساكورة - التي قالت لى أنها تستطيع أن تتحدث الفارسية - يبدو العالم جميلاً ورفيقاً تحت سماء قم، في غبارها المقدس وأتونها المقدس جداً. - إن قم هادئة جداً، والجيران ودودون، ولا عنف هنا.

فماذا عن ذلك العنف النفسى الذى يزرع على الجميع هنا يا ساكورة؟

حين لقيتها صدفه للمرة الأولى كانت ساكورة تدرع الممرات الموحشة لجامعة فاطمي الطبية بحثاً عن شخص مالم أذكره. ولن تجدن أبداً أيتها الفتيات مؤسسة أكثر جدية وأكثر نقاء في إسلاميتها من مؤسسة فاطمي. أما أولئك الباحث عن أزواج فعبثاً يجتن هنا، فلم ألتق أبداً بطالب واحد، لا في الممرات، ولا في المعامل، ولا في الفصول، ولا في المكتبات، وكان الرجال الوحيدون الذين لقيتهم كناساً يدفع مكنته، وحارساً في زيه الرسمى يراقب المدخل، وبستانياً يعتنى بممرات الفناء الداخلى وهى أصلاً بغير حاجة إلى عناية.

مجمع ضخّم خرج من بين الرمال فى عام ١٩٩٢ عند أطراف قم، إن هذه الجامعة الفريدة قاصرة على النساء، فالإدارة كلها فى أيدي نساء، والدروس تلقىها نساء، على الطالبات القادمات من طهران وأصفهان وتبريز وغيرها من المدن. وما من أجنبى بين طالباتها الستمائة، لكنهم قالوا لى إن هذا سيتغير إن شاء الله. مائة وخمسون أستاذة لا أقل، مدلات تماماً، يتقاسمن فيما بينهن تدريس كل ميادين الطب.

- كشيّرات منهن يأتين بانتظام من طهران، إنهن إخصائيات كبار، نساء مشهورات.

ومضت مرافقتى تتحدث، فى اعتزاز بإسلامها، واعتزاز بتلك الأجنحة السوداء التى ترفرف فى الهواء وهى تسير.

- إنها صفعة فى وجه العالم.. تلك هى جامعتنا، رد على أولئك الذين يقولون إن الإسلام لا ينظر للمرأة إلا باحتقار، وأنه يقلل من شأن قدراتها وذكائها. إنها تحد لأولئك الذين لا يكفون عن ترديد أن الإسلام يجبرها فى منزلها...

## صور حية من إيران:

وطيلة حديشها كانت مرافقتى تمسح بظهر يدها العرق المنساب على جبهتها  
التي يحيط بها شريط أسود سميك .

- ... وينبغي أن ترى مستشفانا على بعد عدة كيلو مترات من هنا ! وهناك  
أيضاً لا يوجد سوى نساء ، ودون تواضع زائف فإن الرجال يعجبون بعملنا ، وحين  
يروننا نعمل يقفون فاغرى الأفواه ، وبالطبع فإن مستشفى كله من النساء مائة فى  
المائة موجه فى المقام الأول إلى النساء ، لكننا نعتزم أن نعنى ذات يوم بالرجال ، أن  
نضع قدراتنا فى خدمة الشعب ، بما فى ذلك أبأس البائسين ، وأن ننقذ ضحايا  
الكوارث الطبيعية والحوادث ، وضحايا الحرب لا قدر الله .

عبارات شاعرية ! لكن سوء الفهم الذى أعقب ذلك هبط بمحدثتى من عليائها :

فقد سألتها : ما هى الأمراض الرئيسية (Main) هنا .

فأجابتنى مستنكرة : ولكن .. ولكن ليس لدينا أمراض رجال (Men) «أمراض  
رجال» ، الجنس ، الإيدز .. فى قم .. أى فكرة بشعة .

## فرانسواز أوطرق

### الرب غير المتوقعة

- بسم الله الرحمن الرحيم ، أنا فرنسية ، ولدت منذ أربعين عاماً .

هكذا قدمت فرانسواز نفسها لى فى ذلك اليوم ، لكى تسرع فتضيف :

- اسمى الإسلامى هو زهرة .

كان الجو حاراً ، حاراً جداً ، فى طهران فى بداية سبتمبر ١٩٩١ ، وكنت أنظر  
إليها وهى جالسة أمامى ، منتبهة لأسئلتى ، محدقة فى بزرقة عينيها الصافيتين ،  
وخبثات العرق تلتصق على وجهها ، فقد جاءت على عجل ، وفى طيات شادورها  
.. كان بعض الغبار مازال عالقاً .

إن فرانسواز برهان حى على أن أحداً لا ينبغي أن يبقى ثابتاً فى يقينه، نعم .. حتى هنا فى إيران .. لقد جاءت هنا بإرادتها وارتدت الشادور .. ووجدت السعادة فيه .

ولأن فرانسواز - زهرة قد هزت معتقداتى، وحركت شيئاً فى أعماقى فقد وجدت مكاناً فى هذه الصفحات، غير أن الله يعرف - وهذا ما أقوله عن ثقة - أنها لم تقنعنى .. كما لم تستطع أن تقنع زوجها الأول، البسيط الطيب، هذا الموظف فى السكك الحديدية الفرنسية ووالد أطفالى» بأن يصحبها فى آلام بحثها الميتافيزيقى .

كانت فرانسواز، فى فرنسا، تعمل مساعدة اجتماعية طيلة اثنى عشر عاماً . - احتككت بكثير من الأجانب، واجتذبتونى، فعبرهم كنت أعيش عوالم أخرى .

وجاءت الاستجابات الأولى المترددة لهذا التعطش إلى «شئ آخر» .

وقد مضى وقت طويل منذ ذلك الحين، وتزوجت فرانسواز للمرة الثانية ثورياً إيرانياً، غير حليق، لكنه مشذب أيديولوجياً، وحين سألتها عن ظروف لقائهما فى فرنسا، ظلت فرانسواز غامضة، وبقيت نظرتها معلقة بعيداً فى مكان ما فوق كتفى .

- لا أهمية لذلك، فليس لزوجى شأن بتحولى، فقد كنت أبحث بنفسى، أما هو فاكتفى بأن يشرح لى .. الإسلام! كأنما كان أحد يمد خيطاً من الذهب أمامى .. الإسلام! أخيراً هاهى الإجابات الحقة على كل تساؤلاتى .. وأدرت عندئذ أننى كنت دائماً مسلمة، فكلمة «الإسلام» تعنى «التسليم لله»، وقد كنت دائماً خاضعة له، وبداخلى على الدوام ذلك الشئ الذى يدفعنى لفعل الخير» .

فرانسواز .. لكم حركت مشاعرى، حتى لقد كنت أنسى كل هذه اللافتات والشعارات، كل هذا العرض السياسى الكبير الذى يدور حولنا باسم الرب، وبحث فى حقيبتك، وأخرجت محفظة، سحبت منها صورتين لولديك .. فرنسيان صغيران .. صبي وصبية، وأحياناً تأتى ابنتك من فرنسا لزيارتك، ففيم تفكر حين ترى نقابك الأسود، ومعطفك الأسود، وجواربك السوداء، بعينى



المراقبة الحادتين؟ تقولين إن ابنتك تفهمك، ربما... ولكن ماذا عن الأخريات؟ ألم تقولين إن كل أسرتك تقريباً قد نبذتك، ولم تستطع أن تغفر لك اختيارك للمسجد بعد أن كنت قد أقيمت طويلاً بالكنيسة؟

- لقد تركت الكنيسة لأن أحداً فيها لم يكن يستطيع أن يجيب على أسئلتى ولم أجد أبداً فى الكنيسة تلك العدالة التى كنت أحلم بها - والتى مازالت أحلم بها.

وفكرة الاعتراف تشير حنقها.

- لن أعزى روحى أمام كاهن، بل كاهن فاسد! كلا!

- وهل الملالي أفضل؟

- إنك لا تفهمين، فسواء كانوا من الملالي أو حتى من آيات الله فإن أحدا منهم ليس أفضل منى فى نظر الله، ولا أتوجه من خلالهم لكى أخاطب الله، وأنا أخاطبه مباشرة.

حسناً... ولكن لماذا القرآن وليس الإنجيل؟

- لأن العيش مع الله فى نظرى يعنى أن أعيشه فى حياتى اليومية... والإسلام يحيط بى دائماً... إنه يملئ على ما فعله، ومتى أصلى، وماذا أرتدى.

**لكن الغرب..**

**هو أيضاً موزار**

أعرف.. أعرف.. أنك تدفين نفسك فى هذا النقاب الأسود، لأن الرجال لا يفكرون إلا فى «هذا». ولكن إذا كان الله قد خلق الشمس، أفلا يريد لها أن تداعب بشرتك؟ وماذا عن هذا الهواء الذى يرتعش حولنا؟ الحق أن جوهر الحياة هو الإغراء.. أعرف.. أعرف.. أن الغرب قد مضى إلى أبعد مما يجب، وأننا قد

خضعنا لطغيان المتعة... ولكن أن تختارى إيران.. وطغيان اللامعة.. أن تشعرى ذات يوم بالإرهاك من كل هذه النظرات التى توجه لك لأنك رشيقة وشقراء.. إن أى امرأة مستنيرة لابد وأن تفهمك.. إننى ضائعة مثلك بعبادة الجسد. الغرب: مجتمع عار، مجتمع صاحب بموسيقى الروك، والفيديو كليب، والإعلانات، والمال، وبالنسبة لنا نحن النساء اللاتى يفترض أن يبقين مغريات حتى سن المائة كريمات مكافحة التجاعيد، التى لا تفعل أكثر من أن تبرز تجاعيد أرواحنا، ولكن لا تنسى يا فرانسواز أن الغرب الذى جئت منه هو أيضاً موزار...

لكنها لم تكن تصغى لى.

- إنك لا تفهمين.. لا تفهمين على الإطلاق، إنه الله.. أوامر الله، وملابسى هذه أمرنى الله أن أرديها.

وكان صوتها يمتلىء بالجدية وهى تقول:

- منذ اللحظة التى ارتديت فيها النقاب شعرت بأننى كبرت أمام نفسى.  
أما أنا فقد شعرت بالحيرة! فماذا يمكن أن أقول؟

---

## شيرين أبادى..

---

### محامية نصيرة المرأة

---

منذ لقائنا الأول.. بعد ظهر يوم خائق فى منتصف يونيو ١٩٩٧.. سرى تيار المودة بينى وبين شيرين.

قالت فى البداية:

- ماذا تريد أن أقول؟ إننى أشعر بسخط لا أدرى معه بما أبدأ، من الصعب أن تكونى محامية، ونصيرة للمرأة، فى جمهورية إيران الإسلامية.

غير أننى أشعر اليوم بقدر من الأمل، شعاع خجول يتراقص فى الهواء..  
فريسننا الجديد محمد خاتى يتمتع بذهن متفتح تحت عمامته، فلنرجو الله ألا

## صور حية من إيران

يسحبوا البساط من تحت قدميه.. أو ما هو أسوأ.. فلن أنسى أبداً منذ نحو عشر سنوات حين كان خاتمي وزيراً للثقافة أنه لم يتردد في منح جائزة لجميلة شيكي المثلة الشهيرة منذ أيام الشاه.. وكانت هذه إيماءة جريئة إذا تذكرنا أن الخميني كان لا يزال حينئذ في السلطة.

شيرين أبادي.. كم هي إنسانية.. وشجاعة.. كم من المآسى مرت بها خلف ستائر مكتبها المسدلة بعناية؟ والمكان ملئ بكل شيء.. كتب القانون بالطبع، وإنما أيضاً نداءات الحد من التسليح، وأشعار، وروايات، ومؤلفات من كل نوع أكثرها بأقلام أصدقائها، وأغلبهم من بين المائة وأربعة وثلاثين مفكراً الذين وقعوا بيان ١٩٩٤ الشهير الذي يطالب بمزيد من حرية التعبير.

ووسط الأكوام المتراكمة في فوضى الحياة اليومية توجد تلك الوثائق الطنانة التي كتبتها شخصيات كبيرة في مجالس بعيدة، والتي يفترض أنها تحمي الصغار... الأطفال.. وشيرين تحب الأطفال وتدافع عنهم بأسنانها وأظافرها، وهو نضال جلب لها كثيراً من الأمجاد، ومن بينها هذه اللوحة المحفورة التي تلتصق تحت ضوء مصباحها.. جائزة «مراقبة حقوق الإنسان لعام ١٩٩٦».

وينبغي أن نقول إن أمام شيرين الكثير من العمل في بلادها، فباسم الإسلام ألغى الشوريون بجرة قلم الحكمة التي كانت مخصصة للأحداث، فالفتيات يحاكمن الآن بنفس معايير الكبار حين يبلغن التاسعة من العمر، أما بالنسبة للأولاد فالسن هي الخامسة عشرة.. أمر طبيعي للغاية!

## قاضيات؛

## نعم أولاً!

كانت شيرين من بين أول خمس قاضيات عين في أيام الشاه.

- وعقب الثورة مباشرة خلعنا الملالي من مناصبنا بحجة أن الإسلام يحظر تعيين المرأة قاضية، ولما لم يعرفوا ماذا يصنعون بنا فقد ارتجلوا لقب المستشارات،

وقاومنا، وأثبتنا بشكل قاطع أن القرآن لا يحوى مثل هذا الحظر. وأخيراً اعترفوا بأنهم كانوا على خطأ فى تفسيرهم... والنتيجة؟ لا شيء.  
... أنا... يا صغيرتى أنا... ألا ترين شيئاً قداماً؟ لا أرى غير قوانين... وما من امرأة قاضية تحت المناطات(\*).

- وأخيراً سئمت، وتركت وزارة العدل، وفتحت مكتبى هذا.  
ورغم أن رجلاً كان يصحبنى فقد استقبلتنا شيرين ورأسها عار.  
- استريحى أنت أيضاً! انزعى عنك خمارك!

ولكم شعرت بالسعادة وهواء المروحة يداعب شعرى، السعادة أن أجد أمامى امرأة حقيقية، وجه ملهى يكاد يكون طفولياً تحت شعرها البنى، وهى تبدو أصغر من سنّها الذى بلغ الخمسين، إنها متزوجة من مهندس، ولديها ابنتان، إحداهما تبشر بالفعل، إن لم يزد عمرها عن الثالثة عشرة، بأن ترفع ذات يوم راية العدالة التى ترفعها أمها.

وكان والد شيرين - وهو أيضاً محام - هو أستاذها الأول.  
- وأول المعجبين بى، فقد كان أبى فخوراً بى.

وفوق أحد رفوف المكتبة وضعت شيرين النظارة التى كان أبوها الحبيب يرتديها فى شهور حياته الأخيرة، لقد أصبحت رمزاً، فمن خلف زجاجها الذى يحيطه إطار عتيق كان هذا الرجل الصادق - الذى سيظل دائماً نموذجاً أعلى لابنته - ينظر إلى العالم من حوله.

(\*) استشهاد بتصرف عن أقصوصة «الحيّة الزرقاء» بقلم شارل بيرو... ويقول النص الأصلي:

آن... آن... يا صغيرتى

هل ترين شيئاً قداماً؟

لا أرى غير الطريق... يمتلىء بالغبار

والعشب يزداد اخضراراً (المترجم).

## عالم العمل:

### مفتوح على مصراعيه للمرأة

هذا العالم الذى أخذ ينكمش اليوم كثيراً، خاصة بالنسبة للمرأة، اللهم إلا باستثناء واحد - وتلك مفارقة أخرى فى بلد يمتلىء بالمفارقات! فعالم العمل مفتوح على مصراعيه لهن، والمرأة موجودة فى كل مكان: فى المكاتب والمصانع والجامعات والصناعة والتجارة والعلوم والفنون، وأمام الكاميرا وخلفها.

فى تصميم الأزياء.. فى (الموضة).. نعم فالجمهورية الإسلامية تضم كتائب من المصممات الشابات لأزياء أنشوية للغاية.. لا ترتدى إلا داخل البيوت، وهى بيوت لن تعد فرصة للتأللؤ حين تحتك بشرنقة الأثرياء فى شمال طهران.. شقق فسحة مذهبة، وفيلات بحمامات سباحة زرقاء، وقصور بيضاء بأعمدة تحيط بها سلالم ضخمة كأنها خارجة من فيلم «ذهب مع الريح».

وصالات التحرير بدورها تمتلىء بالنساء، لا فى الليل ينكسن ويمسحن، وإنما صحفيات يجلسن خلف أجهزة الكمبيوتر، أما عن المجلات النسائية فليست جميعها تحذو حذو العمائم.

صحيح أن مجلة «المرأة اليوم» العاقلة أشبه بامرأة الأمس، ولكن فى الطرف الآخر تتناول مجلات أخرى مثل «زنان» بشجاعة مواضيع حساسة كالعلاقات بين الرجل والمرأة وحتى الانتحار.

وتضم مجالات البحث العلمى الإيرانى المتقدم بدورها نجمات، مثل عالمة الفيزياء الفلكية بتول جازبى.. التى لا تعباً كثيراً بمظهرها على الأرض، بنقابها ونظارتها، فهى لا تحب إلا من أجل دراسة ذرات الغبار بين الكواكب. ولم يفت فى عضدها أبداً أو يفتر حماس هذه المرأة العنيدة إغلاق الجامعات فى السنوات بين ١٩٨٠ و ١٩٨٣ بسبب الاضطرابات والعصيانات الإسلامية، ولا العزلة السياسية التى عانت منها إيران وحرمت جامعة العلوم والتكنولوجيا فى طهران سنوات طويلة من بعض المنتجات والأجهزة اللازمة للغاية لأبحاثها.

- وإذن فهل ستذهب المرأة بالشادور ذات يوم إلى القمر؟

وضحكت، ثم قالت بحاسة فكاهية غريبة:

- طالما أن الرجال قد بدأوا منذ الثورة، يحترمون تفكيرنا على هذه الأرض... فلنستفد من ذلك الآن.

إنها طائر نادر... يتول هذه، لا يثير رهبتها كثيراً تفوق الرجل، لأنها مقتنعة، علمياً، بتفوق المرأة.

- إننا نستطيع أن نفعل كل ما يفعلون، أما هم فلا يستطيعون أن يفعلوا كل ما نفعل... إنها معادلة بسيطة... أليس كذلك؟

ولأعلنها صراحة لبعض الرجال وبعض النساء... إن الثورة قد فتحت صباغات مشرقة، إن لم تكن قد بدأت تغرد بعد، فإن موسيقى المستقبل الهادئة تنبعث منها... وبالنسبة للفلاحين والفلاحات مثلاً، الماء والطرق والمدارس والعيادات، ولم تنس الحكومة حتى القرى النائية، الضائعة بين سفوح الجبال أو في أعماق الصحارى وقد بدأت برنامجاً هيدر وكهربياً طموحاً.

ورغم أن كثيرات من صديقاتي يشعرن بالحساسية تجاه الملالي إلا أنهن لا ينكرن عليهن بعض المزاي.

- انظري إلي هذا الفلاح الذى كان حين يتحدث عن امرأته يقول... «البقرة»؟ إن هذا الرجل نفسه يطيع اليوم أوامر المهندسات اللاتي دربتهن الثورة. لكن الحماسة شيرين أبداً تلقى بالماء البارد على هذا الحماس.

- كل هذا جميل... ولكن حين نأتى إلى ما يتعلق بالأسرة والقواعد الاجتماعية فإن القوانين الإسلامية بتفسيرها المتخلف تعرقل خطى المرأة. ففي أيام الشاه لم يكن مسموحاً للرجل أن يتزوج بأكثر من امرأتين، وكان عليه إذا أراد أن يعقد زواجه الثانى أن يقدم للمحكمة أسباباً مقنعة: «إن زوجتى الأولى عقيم، أو مريضة مرضاً لا شفاء منه، أو ترفضنى، أو تركت منزل الزوجية»... وكان الرجل والمرأة متساويين عملياً فى مسألة الطلاق، فأيهما يستطيع أن يطلب الانفصال شارحاً للقاضى أسبابه.

- والآن؟

## صور حية من إيران:

- تسود الشريعة بأكثر تفسيراتها ضيقاً وتزمتاً، ويستطيع الرجل أن يتزوج أربع زوجات دون أن يقدم تبريراً، وأن يطلقهن ببساطة دون أن يسأل عن السبب. صحيح أن المشرع قد أضاف منذ نحو عشر سنوات تعديلاً للقانون، يلزم الزوج بأن يدفع شيئاً لمن طلقها، لكنه مبلغ ضئيل، يحسب على قدر السنوات والخدمات التي قدمتها - وكأنها خادمة: كذا مقابل غسيل ملابسى وكذا مقابل إعدادها لطعامى.. وأياً كانت ظروف الانفصال فإن الأطفال من حق الأب دون مناقشة: من سن سنتين بالنسبة للولد وسبع سنوات للبنات.

- ولكن ماذا تقول النساء اللاتي وصلن إلى مناصب رسمية؟ وأصبحن نائبات في البرلمان؟

- فلننتظر لنرى، فحتى الآن لم يفعلن أكثر من ترداد نفس العبارة.. هذا هو الإسلام.. هذا هو الإسلام، هذا هو الإسلام..

وفتح باب المكتب، ودخل منه رجل ورائحة القهوة، ومأ الرجل الفناجيل ثم اختفى كالقطعة، بنفس الحرص الذي دخل به.

## علامات استرخاء

تكررت الطقوس نفسها بعد عدة شهور، حين هرعت فى يناير ١٩٩٨ لرؤية صديقتى الباسوناريا: المكتب والمكتبة والرجل الذى يقدم القهوة... ولكن شيئاً ما قد تغير.. أليس كذلك يا شيرين؟ لقد نشرت وكالة الأنباء الإيرانية منذ قليل نبأ أكدته الصحافة الأجنبية، أفلم تعين الجمهورية الإسلامية قاضيات؟

- مجرد دعاية! صحيح أنهم نقلونا من المكاتب الخلفية إلى قاعة المحكمة، ولكن هذا لا يجعل منا قاضيات، فما زلنا دائماً مستشارات، ولكن علينا بالصبر... فعمل رئيسنا الجديد يتحرك بخطى بطيئة خوفاً من الأصوليين، لكنه يتقدم ويتقدم... اذكرى المظاهرة التى نظمتها فى سبتمبر الماضى، إنها سابقة من نوعها، وما من شرطى! ولم يلق القبض على أحد..

وتقول شيرين إن الآلاف - وأغلبهم من النساء - قد اندفعوا إلى الشارع ذلك اليوم مطالبين بتعديل القانون، إثر فضيحة حكم صدر: فقد قتل رجل ابنة زوجته التي تبلغ الثامنة، ونتيجة لعب شكلي أطلق سراحه.

وشمة علامة أخرى على تخفيف القيود في نظر الحامية، وذلك أيضاً بسبب وجود الرئيس خاتمي على رأس الدولة: تسامح السلطات تجاه الخمسين من المفكرين الذين تجاسروا - ومن بينهم شيرين نفسها - على توجيه النقد في رسالة مفتوحة إلى المرشد الروحي الأعلى للجمهورية الإسلامية آية الله خامنئي.

ففي قم.. المدينة المقدسة يعيش واحد من آيات الله اسمه منتظري، كان من قبل مقرباً للغاية من الخميني.. ومنذ بضعة أشهر، في عام ١٩٩٧، تجاسر استناداً إلى وصية الإمام والفقهاء الشيعة على المنازعة في حق خامنئي في حمل لقب المرشد الروحي الأعلى.. وجر عليه هذا المتاعب، فقد هاجم بعض الغوغاء المزعومين بيته ونهبوه وحرقوا كتبه. وكنت وأنا أصغى لشيرين استرجع ذكرى منتظري، أو بالأحرى تلك الصورة الضخمة التي وضعها مؤيدوه في مكان بارز على جدار منزله في قم، والتي أراني إياها دليلاً بسرعة ونحن نمر، وقد اكتسى وجهه بهذا التعبير التآمرى الذي يتخذه أحياناً دون أن أفهم السبب، وفكرت حينئذ أنه أحد أسرار إيران، وتركت الأمر عند هذا الحد.

أما الآن فإنني أفهم.

ومضت الحامية تقول:

- ومن بين هؤلاء الخمسين مفكراً لم يلقوا القبض إلا على إبراهيم يزدي أحد المعارضين القدامى وثار غضبنا.. لماذا هو؟ ولماذا هو وحده؟ ولماذا لم يقبض علينا نحن؟ وقد طالب يزدي بمحاكمة علنية، وكم كانت دهشة الجميع لأنهم سمحوا بذلك، ففي الماضي كانوا يختطفونك، ويحكمونك في جلسة سرية... حيث يتقرر مصيرك.



## النساء الرسميات

النساء الرسميات : فى كل بلد أزوره كن فى انتظارى .. ويوضعن فى برنامجى ، حول قدح من الشاى أو القهوة والبسكويت المعسول كابتساماتهن ... والجو فيما بيننا متفاوت .. أحياناً ما يكون حاراً ودياً وأحياناً ما يكون متوتراً ومتحفظاً ، حين تختفى الأخوة ، وللأسف ، خلف السياسة .

وهكذا كان الأمر فى إيران .. مع بطلات الجدل الأيديولوجى الإسلامى : وإذا كان إيمانهم يثير انفعالى فإن تعصبهم يثير ضيقى ، حين يقلن مثلاً « إن فرض النقاب على الأجنيات أمر لا يناقش ، فالإسلام هو الإسلام » ... ولكن فى حدود علمى فإن أى مسلمة تزور الغرب لم يفرض عليها لبس المايوه البكىنى .. وليغفر لى الله هذا الرد ، الذى يكشف مرة أخرى عن افتقارى إلى السمو الروحى .

ديسمبر ١٩٨٥ ..

## الحرب والثورة، عزام طاليخانى

كانت عزام طاليخانى أول امرأة بارزة أجرى حديثاً معها ، فى طهران فى عام ١٩٨٥ فى وقت كانت إيران فيه تفور بالثورة أكثر من الدين : من ناحية المدينة وقد غزاها حرس شباب يرتدون السواد ، بعضهم بلحى ، وبعضهم بالشادور ، ومن الناحية الأخرى الجبهة ، الحرب مع العراق .. فصائل حرس الثورة تطوف عبر العاصمة ترأقب الملابس غير السليمة سياسياً ، وأعينهم على الأرصفة دائماً ، وسياراتهم « النيسان » البيضاء التى تحمل شعار الجمهورية تتلوى فى الشوارع تكاد على الدوام تسبب الحوادث ، لكنهم مطهرون من الخطايا دائماً ، فالله يغفر لأولئك الذين يطوفون من أجله كل شىء ، حتى القيادة المتهورة .

أجل تحرر المرأة، خطت عزام خطوة كبيرة من أجل القضية حين رشحت نفسها لرئاسة الجمهورية - وإن لم تنجح بالطبع.

وهي رمز قوى لأنها ابنة واحد من كبار الثوريين الأوائل، ومؤسسة صحفية سياسية ودينية أو دينية سياسية هي «رسالة هاجر». وقد استقبلتني عزام في يوم رمادى من شهر ديسمبر، في مكان غريب.. قصر أسقفه من المرايا حول إلى مكاتب متقشفة، ينتقل بينها حرس الثورة المسلحون من غرفة إلى أخرى، وهم يحكون الأرض بأحذيتهم الثقيلة.

كانت الرمز جالسة كأنما على العرش، محجبة حتى عينيها، وكان الجميع - رجالاً ونساء - يعاملونها باحترام شديد، وهذا أقل ما يجب لأن عزام قد ذاقت السجن الإمبراطورى حتى الشمال، متابعة في هذا خطى أبيها الشهير، آية الله محمود طاليخانى عدو الشاه اللدود.

وبعد أن ضغط إصبع مجهول فى خفر على زر جهاز التسجيل - فهذا الصندوق الأسود الموضوع على المائدة سمة تقليدية للأحداث الرسمية -... استدارت عزام نحوى وسألت المترجمة:

- من أين جاءت؟

من سويسرا

-... حسناً.. وإذن فأنت تعرفين مدام مونتمولان.

ماذا؟ ماذا تصنع هنا هذه الأسرة البورجوازية السويسرية العريقة؟ كان كل شيء يبدو كمهزلة، فقررت أن أدخل اللعبة، وأجبتها بلهجة المرأة الخبيرة: «أيهن؟ أى مدام مونتمولان؟ من أى فرع للعائلة؟»

- أى فرع؟ وكيف لى أن أعرف فرعها! إنما أحدثك عن كتابها!

....

- ماذا؟ ألم تقرئيه؟

وهرع أحد المساعدين يبحث عن الكتاب، ويأخذنى حيث ظهرت كنصير امرأة زائفة. لقد وضعت مواطنتى سيمون فالدر دى مونتمولان كتاباً عن حقوق

المرأة السويسرية، وأنا لا أعرف شيئاً عنه .

... في حين أن - بعض المناضلات في صفوف اتحاد المرأة المسلمة في جمهورية إيران الإسلامية - على حد قول عزام لم يقرأن الكتاب بالفرنسية فحسب، بل وترجمته إلى الفارسية «حتى تستطيع سلطتنا أن تستلهمه» .

فبراير ١٩٩٧:

فاطمة رافسنجاني الابنة الأولى

لرئيس السابق

وقفنا مراراً أمام نقاط التفتيش والأزياء الرسمية .. رغم أنه كان من الواضح أن سيارتنا رسمية، وتناوبت نقاط التفتيش على طول هذه الطرق الواسعة المحاطة بأشجار باسقة والمؤدية إلى قصر سعد أباد، ففي هذا المبنى الوردى ذى الطراز الأوربي القائم في قلب طهران، والمقام في حديقة مليئة بنافورات المياه وتغطيها أشجار الصنوبر كالمظلات يستقبل المسئولون الإيرانيون الشخصيات الأجنبية .. وكانت فاطمة هاشمي رفسنجاني الابنة الكبرى لرئيس الجمهورية حينئذ في انتظارى .

كانت سجادة فاخرة تغطي الدرج الممتد من الممشى حتى البوابة الرئيسية . وفي الداخل كانت سجاجيد أخرى من ألف ليلة وليلة تلون الأرضية المرمرية بأسرها، وثرىات ثقيلة تسيل منها دموع زجاجية، وأثاث فرنسى، و(تابلوهات) فارسية، وأبواب مزينة برسوم الزهور والطيور بطريقة تقليدية ساحرة أو بالية حسب نظرتك للأمور .

ولكن أين ذهب التقشف الشورى؟

إنه يتجسد في هذا الشكل الغائم الذى يتقدم نحونا، وفي أثرها مترجم عن

الفرنسية، ومن خلف الحجاب الأسود كانت تطل ملامح رقيقة، يعلوها قدر من (الشقاوة). ومع فاطمة كنت أكاد أشعر أحياناً بالتضامن! ذلك التضامن الحق الذي يتجاوز كل الادعاءات.. وكانت فاطمة - كشقيقتها فائزة عضو البرلمان - تهاجم التفسيرات المحققة للإسلام، بل لقد تمتعت بشكل عابر أننى فى نهاية الأمر قد أكون على حق، فمن غير العملى أن تتحركى بكل هذه الأحجبة.

وجلسنا... واستقبلتنا، أنا وفاطمة والمترجم الملتحي، مقاعد من طراز لويس السادس عشر مغطاة بالحرير، ومن خلف النوافذ الفرنسية الطويلة تلتصع خضرة الحديقة.

وقصة فاطمة هى بدورها قصة أسرة من أسر المقاومة، والأغلال والقبود، وصرير المفاتيح، ورنين الأبواب المعدنية:

- طيلة طفولتى كنت أرى أبى يأتى ويذهب، لم يكن إلقاؤه فى سجون الشاه ينتهى. وقد تقاسم أبى و«حمايا»، أبو زوجى، نفس الزنانة.. مما يوطد العلاقة كما تعرفين.

إنها فى السادسة والثلاثين، ولديها طفلان، وهى تدير رابطة تضامن المرأة فى إيران:

- أطمئنى.. فكثير من روابط المرأة الإيرانية غير المسلمة تتعاون معنا.. من الزرادشتيات واليهوديات والمسيحيات والأرمنيات والمسيحيات الآشوريات ومسيحيات الكنائس الغربية..

ويبدو أن مهمة الرابطة شاقة للغاية.. رغم كتيبها الذى يكاد يكون شعراً بعنوان «الجنة تحت أقدامهن»، بغلافه الوردى، فالأرقام التى يحويها أبعد ما تكون عن الجنة! أيرجع ذلك إلى قسوة حياتهن؟ فرغم سنوات الحرب الثمانية ضد العراق التى استنزفت الجيش فإن عدد النساء فى إيران أقل من عدد الرجال: ١٠٠: ١٠٦,٧ كما تقول الإحصاءات الرسمية فى عام ١٩٩١.

وتنهدت فاطمة:

- وأخيراً... فإن المرأة أشد دأباً وأكثر صبراً من الرجل... ومن يعلم فرمما ذات

ربما ذات يوم.. تصبح امرأة رئيسة للجمهورية الإسلامية؟ على حد قول الرئيس السابق رافسنجاني ليس هناك ما يمنع من ذلك، ففي اللغة العربية تعني كلمة «رجل» رجلاً لا أكثر، أما في اللغة الفارسية فإن الكلمة تعني - حسب السياق - «رجلاً» أو «شخصية سياسية». ومن ثم فإن كلمة «رجال» في الدستور الإيراني تشير إلى كل الشخصيات السياسية؛ رجالاً ونساءً - ومن هنا إلى رئيس أو رئيسة الجمهورية! غير أن آمال المرأة أحبطت أثناء الانتخابات الرئاسية في عام ١٩٩٧، حين أزاح حكماء مجلس الحراس الاثنى عشر تلك التفرقة اللغوية، ففي نظر هؤلاء المفسرين الملهمين يتحدث الدستور عن رجل دولة لا عن امرأة دولة. ومن ثم كان على المرشحات أن ينسحبن.

فبراير ١٩٩٧:

## فايزة رافسنجاني والدورة الأولمبية

### النسائية الإسلامية

أربعة وثلاثون عاماً، وطفلاً.. إن فايزة رافسنجاني أخت فاطمة الصغيرة لا تنقصها الروح، فمقعدها في البرلمان - فهي نائبة - يتطلب بالتأكيد جهداً، أما إطلاق أول دورة أولمبية إسلامية عالمية للمرأة فشيء آخر! وكل شيء أبيض في مكتبها العالي في شمال العاصمة.. الجدران.. والستائر.. وضوء الشتاء البارد.. وفايزة وحدها هي التي تبدو سوداء، وهي تجلس في ثبات عاقدة ساقها، وفي قدميها حذاء رشيقي ذو كعب عال يبدو من تحت حجابها.. وعلى الجدار صورة الفرنسي بيير دي كوبرتان الذي أحيا الثورة الأولمبية، وإلى جوارها ملصق صغير يحمل صورة شابة مغطاة من رأسها حتى قدميها، وهي تجرى رافعة الشعلة الأولمبية.

وقالت فايزة في حق:

- تصورى أنه فى دورة أطلانطا عام ١٩٩٦ لم ترسل ثلاث وثلاثون دولة إسلامية نساء، أما إيران نفسها فإن من ائجل أنها لم ترسل سوى لاعبة واحدة.. لاعبة رماية يمكن أن تتبارى وهى مرتدية الشادور، على خلاف الرياضيات الأخرى. فالإسلام يحظر على المرأة أن تبدو أمام الرجل بثياب الرياضة غير المحتشمة، لكن هذا لا يمنعنا من التسابق.

وتصحیحاً لهذا الظلم نظمت فائزة فى عام ١٩٩٣، فى طهران، أول دورة أولمبية موحدة الجنس فى التاريخ، بين رياضيات قادمات إلى إيران من ماليزيا وتركمانستان وباكستان وقرغيزيا وبنغلاديش وسوريا. وفى عام ١٩٩٧، وفى المدينة نفسها، كررت فائزة التجربة، وخلال الفترة كانت صفوف المباريات قد تضخمت (إذا جاز القول) فضمت متسابقات من أربعة وعشرين بلداً فى نحو عشر رياضات: الكرة الطائرة وكرة السلة وتنس الطاولة وكرة اليد والسباحة والعدو والرماية والكراتيه.

وكدت أنسى الشطرنج، وهى البطولة الوحيدة التى دعى إليها المصورون، إذ من الواضح أن الالعابات لسن بحاجة إلى نزع نقابهن لكن يدفعن القطعة على رقعة الشطرنج، أما المباريات الأخرى التى ترتدى فيها المباريات الثياب الرياضية غير المحتشمة فقد دارت - حياء - خلف الأبواب المغلقة. فالدورات الأولمبية الإسلامية للنساء دورات محظورة فيها التصوير، دورات يرعاها الله لا كوكاكولا.

---

 ديسمبر ١٩٩٧:
 

---

زهرة شوجاى مستشارة الرئيس خاتمى

لشئون المرأة.

---

كنا فى شهر رمضان، وكنت أحس بها نافذة الصبر متعجلة العودة إلى بيتها، فساعة الإفطار التى تعلن فى كل يوم بالثانية على كل موجات الإذاعة والتليفزيون

## صورجية من إيران:

معاً تلاحقنا في ساعة بعد الظهر هذه.. فقد تكون مستشارة للرئيس لشئون المرأة وتقدميه لكن عليها أن تكون في هذه الساعة في مكانها الصحيح.. أمام موقد المطبخ.

ورغم هذا فقد استقبلتني زهرة بصبر، سياسية حققة في خدمة قضيتها.. ومساعدات شابات يحمن حولها.

إنها نصيرة إسلامية للمرأة، وهي متزوجة من أحد «العلماء»، أستاذ للفقه وإمام جامعة طهران، والإسلام هو التربة الخصبة والثورة عقيدتها، الثورة الشعبية، ثورة الشعب، الثورة من طراز «يالا بسات الشادور.. اتحدن».

- كانت هناك بالفعل عضوات في البرلمان في أيام الشاه.. لكنهن على أى حال كن من الصفوة...

وراحت تردد الشائعات المحفوظة: تضاعف الميزانية المخصصة للمرأة إلى عشر أمثالها، وأخيراً المشاركة في مجلس الوزراء، مدارس البنات وحملات محو الأمية تتزايد، والمراكز الثقافية، والمراكز الرياضية، ومشاريع لتفسيرات جديدة للقوانين، وخاصة بالنسبة للطلاق، بحيث تكون حضانة الطفل لأجداد الأبوين وليس للأب أو توماتيكياً، وقدراً أكبر من العدل للأرامل والمطلقات.

- ففي كل لحظة قمر ثمة شيء يتغير في إيران بالنسبة للمرأة.

بحق الله توقفي! وفجأة كان بين يدي كتاب سميك ثقيل: سبعمائة وخمسون نصاً قصيراً، معها سبعمائة وخمسون صورة لسبعمائة وخمسين امرأة ترتدى الشادور... لقد استغرق إنتاج الطبعة الأولى التي خرجت لتوها عامين من الأبحاث عن أبرز الشخصيات النسائية الإيرانية.. وعلى طول الصفحات أوجه رقيقة لمشققات، ولكن أيضاً وجوه كأنها صبت من الطمي، تحية لأولئك اللاتي وهبن أطفالهن، لحمهن ودمهن، لأرض إيران، للثورة والحرب.. شكراً لك نيابة عنهن يا سيدة شوجاي.

أوائل يناير ١٩٩٨:

## معصومة ابتكار نائبة الرئيس

طاووس محشو معلق على زاوية حائط المكتب الرسمى لمعصومة ابتكار، بصدرة الأزرق وذيله المرقش الأخضر والأزرق الذى يبلغ طوله مترين ونصف متر.

- بسم الله الرحمن الرحيم، إن هذا الطاووس يرمز للفردوس الفارسى لكن جماله يذكرنا كذلك بأهمية حماية الأنواع التى خلقها الله.

وقد عينها الرئيس خاتمي نائبة للرئيس فى أغسطس ١٩٩٧، مع سبعة آخرين من نواب الرئيس كلهم من الرجال، وكلفت عالمة المناعة الشابة هذه - التى درست فى أمريكا وتحدث الإنجليزية بطلاقة - بمهمة حماية البيئة.

- فى مؤتمر طوكيو الأخير بشأن مخاطر تغير المناخ بفعل الإنسان لم تكن سوى حفنة من النساء، ثماني عشرة امرأة تائهات وسط مئتي وستة وخمسين بلداً، نعم ثماني عشر امرأة.. وإنه لعدد ضئيل إذا تذكرنا أننا نحن اللاتي نهب الحياة وينبغى أن نكون أول المعنيين بالحياة - والموت - على الأرض. غير أنى مفعمة بالأمل، فأنا أرى مزيداً من النساء يعين فى مناصب هامة وهل هذه التحذيرات المثيرة للقلق التى انطلقت فى طوكيو تقربنا غريباً من بعضنا بعضاً.

إنها فى بداية العقد الثالث من عمرها، بعينين لوزتين تحيطهما هالات سوداء، وشفاه مليئة، وأسنان جميلة شديدة البياض، وهى تبسم ابتسامة واسعة لكنها تتحكم فى نفسها تماماً، ناعمة فى حديثها كحريز خمارها اللؤلؤى المعقود بدبوس تحت الحجاب، والذى يحيط بوجهها ويخفى ذقنها.

وأسرت لى نائبة رئيس إيران أنها لم ترتد هذا الزي الإسلامى إلا منذ توليها المنصب، كما يرتدى الأميرال شارات رتبته.

- إنه هويتنا الوطنية، ورمز لثورتنا.

وتطوف نائبة رئيس جمهورية إيران الإسلامية العالم كله ممثلة لبلادها، وقد حضرت فى أواخر يناير ١٩٩٨ المنتدى الاقتصادى الهام فى دافوس بسويسرا،



وهناك أمام القمم الثلجية اختلط حجابها الأسود بالحلل الرسمية وحقائب الأوراق التي يحملها كبار واضعى القرارات فى كوكبنا .. وكانت هناك أيضاً هيلارى كلينتون السيدة الأولى فى الولايات المتحدة .. هل التقيتا ؟ سر من أسرار الدولة ؟ أو ربما - من يعرف - سر من أسرار المرأة ؟

## هناك دراويش ..

### ودراويش

٢ يناير ١٩٩٨ .. هبط الشتاء فى الجبال ، وتعرضت العاصمة طيلة الليل للرياح والثلج .. وليست لدى مواعيد هذا الصباح ، فالיום هو يوم الجمعة عطلة المسلمين ، الذى لا يفضل كثيراً فى كآبته يوم عطلتنا ... فالصمت يسود الفندق والشوارع .. والقلق يتزايد .. وأسرعت باستقلال سيارة أجرة واتجهت إلى الجنوب نحو الأحياء الشعبية باحثه عن شىء من الحياة ! ووجدتها والحمد لله فى سوق «وحدة الإسلام» العتيق ، فى حواريه الضيقة التى شهدت الكثير والكثير حتى ليبعث فى مجرد وجودى فيها الطمأنينة ، فى وسط بقايا (الموزايكو) الفيروزية الشاحبة ، بين المحلات ذات الأبواب الخشبية ، وأكوام البرتقال بلونها اللامع ، وحمرة (اللابو) ، وهو نوع من الجذور يباع فى الشتاء ، ويؤكل ساخناً حتى فى الشوارع تماماً كما نأكل نحن الكستناء .

ووسط أبخرة الضباب التى ترتفع من الأرصفة برز فجأة شخص غريب الهيئة يرتدى معطفاً صوفياً بنبأ رثاً ، ويعلو رأسه غطاء بلا شكل ، وعقد ثقيل مصنوع من قطع العملة المعدنية المثقوبة يتدلى حتى وسطه .

وهمس لى أحد التجار «إنه درويش .. إنه يتجه نحوك ، ويردد اسم على مائة وعشر مرات ، فهذا هو الرقم المقدس كما يقول» .

ومازال الدراويش ، الرواة الحقيقيون ومنشدو الأشعار الصوفية الشعبية ، موجودين فى بعض القرى ، أما فى المدن فحتى إذا كان البسطاء مازالوا يعتبرونهم

أحياناً من (الواصلين) فإن أولئك البؤساء - كهذا الذى يختفى الآن فى نهاية الشارع - يبحثون عموماً - فى المقام الأول - عن قوتهم.

بيد أن هناك دراويش ودراويش، فهذه الطوائف التى تلتف حول مشايخ طرقهم الموقرين قد انغرست منذ قرون وقرون فى نسيج إيران الاجتماعى، ولعلمهم ازدادوا اليوم بقدر ما زادت عقيدتهم - صوفية مطهرة متحررة من وطأة الكهنة، تمثل ملاذاً للمؤمنين الذين يرهقهم الحمود الفقهي لملاات الجمهورية الإسلامية، وغداة زيارتى للسوق حيث استأنفت روتين المقابلات والأحاديث همس لى صديقى مصطفى - الذى يعرف دائماً كل شىء - أنه يعرف واحداً من هؤلاء الدراويش:

- رجل أعمال ثرى، وتصورى أن ابنه واحد من زعماء حزب الله، أكثر أجنحة الثوريين تشدداً.

٨ يناير ١٩٩٨:

## مفاجأة فى السى إن إن.

بقيت من ذكريات المؤتمر الإسلامى الكبير الذى عقد فى طهران فى شهر ديسمبر صفوف الرايات التى ترفرف أمام مدخل الفندق، واللافتات الكبيرة التى تنتصب فى الشوارع وقد بللتها الثلوج: «واعتصموا بحبل الله جميعاً ولا تفرقوا»!

سرت أتخطب صباح ذلك اليوم حتى المكتب المركزى لوكالة الأنباء الإيرانية حيث كان ينتظرنى رئيس مجلس إدارتها السيد فريدون فردينجى، الذى لم يتحرك حين وصلت إلى مكتبه الدافئ وخرجت على قواعد الإتيكيت إذ خلعت معطفى - ولكن دون أن أجسر على أن أخلع الخمار الذى يحيط برأسى... فللجراحة حدودها حتى بالنسبة لأجنبية.. نصر ضئيل لكنه رفع معنوياتى، خاصة وأنه قد خيل لى أننى رأيت لمعة أشبه بالتضامن فى عيني المترجمة، المجبرة ككل الموظفين على أن ترتدى طيلة العام وأياً كانت درجة الحرارة عباءة طويلة بأكماس طويلة

ومعها الشادور و / أو غطاء رأس .. فمن حيث المبدأ ينبغي إخفاء الذقن - التي تؤدي إلى الرقبة وهي تعتبر منطقة إثارة - إلا أن الصديق يلزمني أن أقول إنها كانت في أغلب الوقت تبرز قليلاً متمردة من تحت القماش .. أما الماكياج : فلا شيء .

وعلى أي حال فهنا نحن هنا ، السيد فردين جاد وأنا ، لننتحدث عن الانفتاح ؟ أفلسنا قبيل أيام من يوم الصفر ؟ فبعد أن نادى الرئيس خاتمي « بالحوار بين الحضارات » ثم « بحوار انتقادي مع الاتحاد الأوروبي » بدأ يستعد في الواقع للمضي إلى أبعد ، وسعيًا إلى التغلب على دعاية الحقد التي ضربت بجذورها في هذا الجانب وذلك منذ ما يقرب من عشرين عاماً أعد مفاجأة حقيقية ليوم ٨ يناير ١٩٩٨ بالتحديد : أن يتحدث مباشرة إلى شعب الولايات المتحدة - وإلى المثقفين بوجه خاص - عن طريق حديث يدل على به إلى قناة السي إن إن ... الرمز الأمريكي بلا جدال .

السي إن إن انغظورة على المشاهدين الإيرانيين ككل القنوات التلفزيونية الأجنبية ، فقد طورت (أطباق) الاستقبال بعد حظرها في عام ١٩٩٥ في نهاية جدال سياسي حار . لكن «التقية» ليست بنت اليوم .. فقد علفت آلاف ، بل مئات آلاف ، (الأطباق) ، أما مختفية بين أغصان الأشجار الكثيفة أو خلف نباتات الشرفات .. وكما يقول البعض عن حق فإن «هذه الأطباق البيضاء الضخمة لا يمكن أن تخبأ في الجيب ، فإذا كانت قد مرت فلا بد أن البعض قد سمح لها بالدخول إلى إيران» .

ويقول المتفائلون «دعونا لا نفقد الأمل .. إن ثمة تغييرات في الجو .. انظر إلى الكتب ، وإلى الأفلام ، إن الأمور تتحرك» .. ولكن أيًا كان الأمر فإن القنوات التي تلتقطها (الأطباق) مازالت - شأنها شأن الصحف الأجنبية التي لا تجد لها الأكشاك أو المكتبات - تعتبر في الدوائر العليا إذاعات مسمومة .

والدوائر العليا هنا هي بالطبع المرشد الروحي الأعلى للثورة على خامنئي الذي صرح عقب إدلاء الرئيس بحديثه التلفزيوني إلى الشعب الأمريكي بأن الوقت لم يحن بعد لاستئناف الحوار والمفاوضات مع الشيطان .

والحق أن الرئيس خاتمي - الرئيس الكاريزمي ، الذي يعلق عليه الإيرانيون كثيراً من الآمال - ليست له كلمة لا على الأيديولوجية ، ولا على الجيش ، ولا على

الاقتصاد، ولا على تجار (البازار) الأقوياء.. إن ما لديه بالكاد قدر من النفوذ على بعض وسائل الإعلام. إنه محبوب.. لكنه وحيد.. وحيد في وجه اللاتى والذين ينتظرون الكثير منه... الفقراء أمام اشتعال الأسعار، والنساء أمام عدم المساواة، والشباب أمام قيود المحظورات، والمثقفون أمام الرقابة غير المتسقة.

فهل هو ضعيف؟ على أى حال فإن غلاة المتشددين فى الدوائر الداخلية يخشونه لروح الحرية التى يجسدها، ولعلمهم يخشون أيضاً إذا خفت قبضتهم أن تولد ذات يوم هبات عنف مفاجئة من جانب شعب يشعر الآن أنه قد تعرض لنوع ما من الغش، فأن يحيا المرء فى الدير أمر يمكن أن يتحمله، ولكن على ألا يكون عليه أن يعمل عملياً لكي يستطيع أن يقيم أوده! وثورة أو لا ثورة فإن كثيرين يرون أن إيران قد عادت إلى هوتها القديمة، حيث الفقراء مازلوا فقراء (إن لم يكن أكثر فقراً)، والأغنياء (وكثير منهم جدد) يزدادون غنى.

## ثورة إعلامية

مزيج من الأيديولوجية الإسلامية الثورية رغم أن حلتها الخضراء الشاحبة قد لا تروق للمتمزتين - وفلسفة إدارة الأعمال الخالية من الروح («الإعلام ليس سوى ناتج، وعلينا نحن أن نعرف كيف نبيع إعلامنا للوكالات الصحفية الأجنبية ولرجال الأعمال») - ولم يتوقف رئيس مجلس إدارة وكالة الأنباء الإيرانية عن الحديث عن نفسه فيما يقرب من ساعتين من (المونولوج) الدائم، فى ذات الوقت الذى يدعو فيه إلى الحوار!... ولكن أليست هذه خطيئة كل المعلمين... وهو واحد منهم؟

فالواقع أن السيد فيردينجداد يقوم - فى أوقات فراغه - بتدريس إدارة الأعمال والصحافة فى الجامعة، وموضوعه المفضل موضوع واسع النطاق هو: أين يقع الحد الفاصل بين الإعلام والدعاية؟ والدعاية فى نظره شر يتمثل فى «تقديم معلومات إلى الجمهور استناداً إلى نظريات السلطة القائمة فحسب»، فى حين أن «الإنسان بحاجة إلى معلومات حقيقية حاجته إلى الهواء»... أى اكتشاف!

## صور حية من إيران

- وكما ترين فإن ما نحتاجه في هذه المرحلة هو ثورة إعلامية، وخاصة على المستوى الداخلي، وهذا ما سعت إليه على الدوام طيلة ست سنوات أدير فيها الوكالة، ولطالما رددت على مسامعهم.. أبعادوا السياسة عن هذا كله.. وكما كان هذا أمراً شاقاً، فالسلطات التي تعودت طويلاً على الإعلام الدعائي أرادت له أن يستمر دوماً، وصحفيو الوكالة اختطفون لا يكفون منذ سنوات طويلة عن قولهم إنني أمضي وقتي في لومهم.. أما عن صحفيي المستقبل.. أولئك الشباب الذين ولدوا مع الثورة، والذين حشيت رءوسهم بالنظريات فإن علينا أن نضع أقدامهم سريعاً على الواقع، وأن نعلمهم قواعد الاقتصاد، ونعدهم للعولة التي ترسي قوائمها، ومن هنا تتبع أهمية مدرسة الإعلام التي أقيمت منذ نحو سنتين فحسب.

وأعقبت هذه المحاضرة على الفور محاضرة أخرى أشبه بالمحاضرات المدرسية:

- قفي يا ديونا واحملي كراسك وافتحي أذنيك! واعلمي أن لكل الثورات ثلاث مراحل: ١ - نشوب الثورة. ٢ - القضاء على كل من يحملون أفكاراً عتيقة ثم الاستقرار. ٣ - إقامة النظام الجديد وهيكلته وبناء مؤسساته.

سألته «فماذا عن إيران؟»

- لا تقاطعيني! ففي إيران استمرت المرحلة الأولى - التي اختمرت بالفعل طيلة العامين اللذين سبقا الثورة في عام ١٩٧٩ - حتى عام ١٩٨٠، حين نشبت الحرب التي فرضها العراق علينا، واستمرت المرحلة الثانية من عام ١٩٨٠ حتى وفاة الخميني في عام ١٩٨٩، وبدأت المرحلة الثالثة - الأكثر حساسية - مع وصول رافسنجاني إلى السلطة منذ ثمانية أعوام، ولا تنسى أن رئيسنا السابق قد جمع فترتي رئاسة.

- أليست سنوات رافسنجاني هذه بالتحديد هي التي يدعونها «سنوات البناء»؟

أحسن! أيتها التلميذة ديونا. والتمعت عينا مدرسي خلف نظارته المعلقة على أنف لا أستطيع أن أضفه إلا بأنه... أنف بوربوني.

واستطرد يقول «وهكذا فبعد سنوات كانت الانفعالات فيها هي التي توجه أعمالنا.. غدونا براجماتيين، وتحول قادتنا إلى مبدأ الأيدي المفتوحة».

وقلت في نفسي لعل أيديهم كانت مفتوحة.. لكنها سرعان ما انغلقت، فالحق

أن حكم رافسنجاني - الذي مازالت تركته ممتدة إلى اليوم في عالم الاقتصاد - قد اتسم في المقام الأول بشعار «الشغل هو الشغل» !

## على حدود إسرائيل

### قرية تسمى «لا مكان»

وتوقف فردينجاد ليلتقط أنفاسه .. أتراني أستطيع أن أنبس بكلمة ؟ كلا ...  
فقد عاد طوفان الحديث ثانية .

- يعتقد الغربيون أن التغييرات التي طرأت على إيران هي من فعل خاتمي ،  
وخاتمي وحده ، وهذا خطأ ، فقد كان عملنا من أجل سنوات و ...

فلتذهب اللياقة والأدب إلى الجحيم ، واندفعت أقول « وهكذا فإن الزهرة التي  
زرعتموها أنتم وأصدقائكم قد أينعت ، ولم يعد على الرئيس الجديد إلا  
اقتطافها ؟ ! »

لكن مضيبي - ورغم أنه فارسي - لم يتأثر بشاعرية العبارة .  
- زهرة ! أى زهرة ؟ الأخرى أن تقولى طريقاً واسعاً ، فما أعددنا له هو طريق  
واسع ...

طرق واسعة ، لابد أن رئيس مجلس إدارة وكالة الأنباء الإيرانية قد قطع الكثير  
منها في السنوات الأخيرة ، وطار من مطار إلى مطار ، فهو يقول « لدى أصدقاء في  
كل مكان ، وفي كل مكان التسقط منهم بعض الأفكار » .. في المقام الأول في  
جمهوريات آسيا الوسطى المجاورة ، حيث أعاد إقامة الروابط التي دامت قروناً ،  
وافتح مكاتباً في كل منها .. فيما عدا أوزبكستان .. وفي بلدان جنوب آسيا  
وجنوبها الشرقي ، وفي البلدان الإسلامية والعالم العربي كله ، وكثير من المراكز  
في لبنان .. في بيروت وطرابلس وبعليك وبالطبع في جنوب البلاد ، حيث حصن  
الشيعة اللبنانيين الذين يساندتهم حزب الله الإيراني ، وهي منطقة يقصفها

الإسرائيليون طيلة سنوات .

- ويعيش أحد المتصلين بنا في قرية تقع على بعد خطوتين فقط من الحدود الإسرائيلية . . ما اسم هذه القرية ؟ فلتسميها اللامكان إذا أردت .

### « عشرة أفواه وأذن واحدة »

وكانت مصر حجرة عثرة أمام وكالة الأنباء الإيرانية ، فليس لديها مكتب في القاهرة حتى الآن ، فقد ضاقت مصر ذرعاً بتصرفات المتهوسين الدينيين ، وبمذابح السياح كتلك التي وقعت في الأقصر ، وصورة إيران تبعث فيها الرعب ، وبالمثل أساءت قضية الإسلامبولي للعلاقات بين البلدين ، ففي قلب الثورة لم تتردد السلطات الإيرانية في تسمية أحد الشوارع الرئيسية في قلب طهران باسم الإسلامبولي قاتل السادات ، الذي حول إعدامه إلى شهيد من شهداء الإسلام في نظرها ، وما زالت اللفتة التي تحمل اسم الإسلامبولي بارزة على الدوام .

وحدثت أن فردينجداد « يلتقط الأفكار » من أقرانه في وكالات الأنباء الأوروبية ، وليس بعد من وكالات الأنباء الأمريكية « لعدم وجود علاقات في الوقت الحالي » . وفي أوروبا تستعد وكالة الأنباء الإيرانية لافتتاح مكتبين في بروكسل وفي جنيف ، بعد أن اختارت لندن مركزاً أوروبياً لها . . إنها تحت الخطي إذن ، ولكن - كما يقسم فردينجداد - ليس من أجل إثارة المتاعب .

- إن كل ما نريده هو أن نحترم خصوصياتنا ، وأن نعد مجموعة أخرى من بين مجموعات السديم الإعلامي .

وفي الختام يوجه فريدون فردينجداد رئيس مجلس إدارة وكالة الأنباء الإيرانية اللوم العنيف للأمريكيين والأوروبيين لأن « لديهم عشرة أفواه وأذن واحدة . . إنهم يتحدثون ولا يصغون » .

ترى هل أصغى إلىّ هو ؟

تماماً كما لم يصغ إلينا أحد ، نحن القلة من الغربيين الذين دعوا إلى تلك الندوة

الغربية التي نظمتها السلطات الإيرانية في طهران في عام ١٩٩١، وقد كنت مبعوثة من وزارة الخارجية في بلادى، لكننى وجدت نفسى مقصاة فى ركن النساء فى نهاية القاعة... كانت أياماً غريبة... وكان موضوع الندوة هو «الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الصادر عن الأمم المتحدة فى ١٩٤٨ / حقوق الإنسان فى القرآن: دراسة مقارنة».

ولم تقم السلطات الحالية رسمياً بإلغاء الإعلان العالمى لحقوق الإنسان الذى أقره مجلسا البرلمان أيام الشاه، أفيلغى أحد شيئاً ليس موجوداً فى نظره؟ ولأعترف بأننا حين لوحنا براهية العدالة المستلهممة من الأمم المتحدة من فوق المنبر تحت ذقون آيات الله الموقرين فقد أجابونا بحجج لها وزنها: «إن الله لم ينتظر عام ١٩٤٨ والأمم المتحدة لكى يملى على رسوله ضرورة احترام حقوق الإنسان، والواقع أن إعلانكم «العالمى» المزعوم لا يمكن أن يكون عالمياً، لأنه إنما استلهم القوى العظمى فى ذلك الحين».

واستطردوا قائلين: «إن أولئك الذين صاغوا الإعلان قد تربوا جميعاً فى ذات القالب الغربى المسيحى، ولم يلقوا بالألحظة واحدة للديانات الأخرى وفلسفاتها ونزعاتها الإنسانية... حسناً يا سادة الغرب، لقد تغير الزمن، ولتعلموا أننا قد أصبحنا عشرات من البلدان الإسلامية فى الأمم المتحدة، نمثل ما يقرب من مليار مؤمن».

ولنحاول أن ننقذ إلى أبعد من ذلك فى تدليلاتهم... إن آيات الله فى طهران يرون أن مسألة حقوق الإنسان لا شأن لها بالجميعات التشريعية للأمم، فمسألة حقوق الإنسان فى يد الله، وهو وحده الذى يقررها، إنها مسألة فلسفية، لا قانونية، وكل ما تتضمنه ينبغى أن يفسر ويناقش ويرفض أو يقبل من جانب فلاسفة لا ساسة.

ثم ينتهون إلى القول «وعلى أى حال فماذا يساوى إعلانكم الشهير لحقوق الإنسان، الذى صاغه بشر خطاءون... فى مواجهة تعاليم يملئها الله، وهو من لا يأتيه الخطأ من بين يديه ولا من خلفه»؟.

وقد أسر لى مندوبو اللجنة الدولية للصليب الأحمر بأنهم اصطدموا بنفس



الحجج حين كانوا يحاولون الدعوة إلى أن تطبق جمهورية إيران الإسلامية اتفاقيات جنيف ... التي صدرت بدورها عن بشر خطائين .

## هولوكست

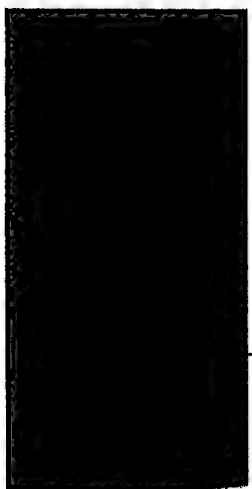
### ثقافى عالمى

إن كل هذه التديلات التي لا ترد إنما تثبت من جديد أنه لا يكفى أن تقيم قلاعاً من الورق لكى تبنى إيماناً . فقد يعتقد البعض أنه مع مولد الأمم المتحدة بعد الحرب العالمية الثانية ، وبعد عالمية القواعد والاتفاقيات التى تحكم العالم فإن بوسع آلاف الرجال الطيبين ، المتشابهين جميعاً ، والذين يرتدون أزياء متشابهة ويتحدثون جميعاً الإنجليزية فى قاعات متشابهة ، مغطاة بالموكيت ومكيفة الهواء بطريقة متشابهة ، أن يلغوا الفوارق .

غير أنهم لم يقيموا سوى (ديكور) ، وخلقوا إحساساً مدمراً يفقد الهوية ، وعندئذ يدافع الناس عن أنفسهم قدر ما يستطيعون ، وينطون على ذواتهم وأديانهم وقومياتهم وخصوصياتهم ، وتتفجر فى كل مكان شعل حارقة ليس لها من رسالة إلا أن تعلن «وأنا أيضاً موجود» .

وكيف لنا عندئذ أن نفهم إيران قليلاً بالرغم من كل التخطبات ؟ وعلى غير هوى أولئك الذين يعتقدون دائماً وأبداً أن احترام حقوق الإنسان يسير يداً فى يد مع الكوكاكولا ، كيف لنا ألا نشعر بقدر من التعاطف مع هذا البلد الذى يضم ستين مليون نسمة .. سلالة حضارة ترجع إلى ثلاثة آلاف عام ، حين يحاول أن يقاوم المحرقة الثقافية التى يخضع لها الغرور الأمريكى العالم بأسره ؟





## المحتويات

الصفحة

٣	شكر
٥	مقدمة
١٠	إلى الشمال
١٢	مشهد .. قدس الأقداس
١٣	لا الفن ولا الطريقة
١٤	مؤسسة مالية بالإيمان والأموال
١٥	فاتيكان الشيعة
١٧	القرآن والإلكترونيات
١٩	أسير إلى حيث يقودنى فضولي
٢٠	إيران .. أكثر بلدان العام كرمًا
٢١	جولشارى .. ملجأ آلاف الأفغان
٢٢	الطالبان لا شيء يربطهم بالإسلام!
٢٤	مقبوضاً علينا!
٢٥	ساعة؟ أسبوع؟ شهور؟
٢٦	انظر إليهم يعبرون حياتى للحظة
٢٧	هل أستطيع أن أتصل تليفونياً؟
٢٨	فى مقر الأمن العام
٢٩	مكان يروح تحت الصمت الانتظار .. الانتظار دوماً
٣١	الفردوسى الخالد
٣٢	هناك مقدس .. ومقدس
٣٣	تشبثى بالسلم!
٣٤	فى الحمام
٣٥	بعض الذكريات العابرة من الكوكب المجاور
٣٧	نساء من سمرقند
٣٨	آن نكون يهودياً وأوزبكياً .. وفارسياً
٣٩	آسب انرسطى .. القرية البعيدة

الصفحة

٤٠	حزام الأمن وحزام العفة
٤١	ثمانى سنوات منذ (وفاته)
٤٢	نرحل فى سبيل الله
٤٤	ما من غربى فى الأفق
٤٥	أما أنا فلا أحب الملالى
٤٦	الضحك فى إيران
٤٧	رجال وفئران
٤٨	الفكاهة وظيفه لطيلة الوقت
٥٠	أكثر من مجرد مهرج
٥١	سخرية بلا حدود
٥٢	ارسم لى حملاً
٥٣	سينمائية وهامشية
٥٤	عودة إلى المطبخ، وعودة إلى الحديث
٥٥	أبناء...؟ تكفينى أفلامى
٥٧	جلسة برجمانية مغلقة
٥٨	التزام ومديح وهجوم
٦٠	«فى المعطف الجميل» (بالفرنسية فى الأصل)
٦١	(ذكور) الإسلام والسينما
٦٢	فى أصفهان.. التواءات العقل الفارسى
٦٤	نشاط الكنائس
٦٦	المسيحيون واليهود والزرادشتيون
٦٨	فلنرحل
٦٩	أن تكون أرمنياً فى جمهورية إسلامية
٧٠	«ليس وضعنا بهذا السوء»
٧٢	إخوة إيران وأرمينيا
٧٢	كل شىء عارض

الصفحة

٧٣	ذراع الله
٧٤	ذكريات واحد ممن نجوا
٧٦	صبية بلا شعر فى لحاهم
٧٧	زاد الرحلة
٧٧	شاركت فى الهجوم الكبير
٧٨	أسير
٨٠	هل أنت هركيول بواريه؟ لقد تعبت
٨١	عدو، صديق
٨٢	المعسكر
٨٣	أمى .. ماذا يههم
٨٣	عيد ميلاد لا يشبه غيره
٨٤	بابا الشيعة وبابا الكاثوليك
٨٥	إلى الخلف يا امرأة
٨٦	قربان تحت الرقابة
٨٧	ذكرى أكثر من مليون قتيل
٨٨-١١١	صور حية من إيران (مجموعة صور التقطت فى الفترة من ١٩٨٥ إلى ١٩٩٨)
١١٣	أنا أهدم بيت ريجان
١١٤	الساحرات
١١٤	كى يموتوا والخلاوة فى أفواههم
١١٥	السيدة القائدة تستقل الهيلوكبتر
١١٦	عراقى غامض
١١٧	أخى كان يحلم بحكومة إسلامية
١١٨	وصول ليلى إلى طهران
١١٩	إلى السجن
١٢١	كلهم سياسيون
١٢٣	كل شىء هادئ فى إيفين

الصفحة

١٢٥	قائدة الكوماندوز
١٢٦	النافورة الحمراء القرمزية
١٢٧	الذبابات وحصان أبيض
١٢٩	على بعد سنوات ضوئية
١٣٠	العقد
١٣٢	سيمين بهبهاني أعظم شاعرات إيران
١٣٣	ألف طريقة للسمع
١٣٤	المساء
١٣٨	الطريق إلى «قم»
١٤٠	محظور على النساء الغناء
١٤٢	مصنع الملاي
١٤٣	آلاف من الطلبة
١٤٤	زواج حسب الطلب
١٤٦	الفقيهات
١٤٦	خلف الستار
١٤٧	حكمة الإسلام توحدنا جميعاً
١٤٩	مسيحية حقاً؟
١٥٠	تحد
١٥٢	فرانسواز أو طرق الرب غير المتوقعة
١٥٤	لكن الغرب .. هو أيضاً موزار
١٥٥	شيرين أبادي .. محامية نصيرة المرأة
١٥٦	قاضيات: نعم أو لا
١٥٨	عالم العمل: مفتوح على مصراعيه للمرأة
١٦٠	علامات استرخاء
١٦٢	النساء الرسميات
١٦٢	ديسمبر ١٩٨٥ .. الحرب والثورة: عزام طاليخاني

الصفحة

١٦٤	فبراير ١٩٩٧ : فاطمة رافسنجاني الابنة الأولى للرئيس السابق
١٦٦	فبراير ١٩٩٧ : فائزة رافسنجاني والدورة الأولمبية النسائية الإسلامية
١٦٧	ديسمبر ١٩٩٧ : زهرة شوجاي مستشارة الرئيس خاتمي لشتون المرأة
١٦٩	أوائل يناير ١٩٩٨ : معصومة ابتكار نائبة الرئيس
١٧٠	هناك دراويش .. ودراويش
١٧١	٨ يناير ١٩٩٨ ك مفاجأة في السي إن إن
١٧٣	ثورة إعلامية
١٧٥	على حدود إسرائيل قرية تسمى «لا مكان»
١٧٦	عشرة أفواه وأذن واحدة
١٧٨	هولوكست ثقافي عالمي











## صور حية من إيران

هذا نوع من التحقيقات الصحفية لم نعد نراه كثيراً اليوم، على مستوى التحدي الذي يطرحه الإلزام ببلد مبهم مليء بالمفارقات مثل جمهورية إيران الإسلامية، وهكذا اتشحت لورانس ديونا بالشادور الإيراني الإلجباري (فكيف يمكن لامرأة في إيران - حتى إن كانت أجنبية - أن تنسى أنها امرأة؟)، وطافت البلاد طولا وعرضا، ساعية إلى فهم ثورة تختلف عن كل الثورات الأخرى.. وجاءت النتيجة هذه الصورة الحية الشخصية للغاية لإيران المعاصرة.. ذلك التزاوج العسير بين الجمود الثوري وثقافة فارس العريقة الطيبة المحبة للحياة.

منذ أكثر من ثلاثين سنة تقوم الكاتبة السويسرية لورانس ديونا بتغطية الشرق الأوسط بقلمها وعدستها.. من اليمن إلى إيران، ممثلة لكثير من الصحف وللتلفزيون البريطاني «تلفزيون أنباء الجبهة».. صدرت لها تسعة كتب أخرى، ترجمت منها ثلاثة إلى العربية، وأقامت معارض لصورها في أوروبا وكندا والولايات المتحدة.. نالت في عام ١٩٨٧ جائزة اليونسكو «التعليم من أجل السلام».

